انتقال القيادة من ليبيا

بعد المعركة الطاحنة التى قتل فيها أبو حاتم وخيرة جنده وقواده في جندوبه، وبعد أن أصبحت القوة بأيدي عمال بني العباس الظلمة، الذين لا يتورعون عن دم أو مال أو عرض، انتقل مركز مقاومة العدوان من ليبيا إلى الجزائر، وتكونت في تاهرت دولة الرستميين.

وليس معنى هذا أنه حينما كف الإباضية عن الثورة، أن الثورة قد توقفت في ليبيا.

إن الثورة لم تتوقف يوما واحدا في جميع المملكة الإسلامية، وإن كانت أغراض الثورات وأسبابها تختلف، وما دامت الدولة مستبدة وعمالها ظالمين، فإن الناس لا يكفون عن المطالبة بالحقوق، وإقامة العدل، إما باللسان وإما بالسيف.

كان الإباضية في ليبيا وتونس مستقلين عن بني العباس ؛ وحينما انتقلت قيادة الحركة الثورية إلى الجزائر أصبحت أدوارهم في تاريخ السياسة وكفاح العدوان تابعة لتلك القيادة، وهم وإن كانوا يتبعون دولة بني رستم في تاهرت إلا أنهم شبه مستقلين.

وقد عمد أكثر الإباضية في ليبيا، بعد انقراض الدولة الرستمية، إلى سكنى جبل نفوسه وإن بقيت بقايا منهم منتشرين في كامل القطر. وكان أغلب هؤلاء المنتشرين يعيشون حياة سكان البادية الرحل، أو حياة شبيهة بتلك الحياة.

وقد أستطاع عمال بني العباس بما أوتوا من مال وسلطان ومكر أن يشحنوا نفوس الناس بكراهة هؤلاء القوم، وأن يحكموا عليهم أحكاما غير صحيحة، من حيث الدين والمعتقد، وبذلك تسنى لهم أن تفترق الأمة فيما بينها لتستقر كراسيهم على هذه الدعامة، دعامة التفريق التى يحسنها الحكام الجبابرة في كل زمان ومكان.

رجع الإباضية إلى أنفسهم، واستمرت حياتهم على طريقتهم المعروفة : عمل دائم لله، ومحاسبة للنفس، ومجاهدة للشيطان والهوى، وإحياء للسيرة المرضية، لا يأبهون للدنيا ولا يقيمون لها أي وزن، إنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة. فكانت مساجدهم عامرة، وأعمالهم في البر متواصلة، ودعوتهم إلى التمسك بدين الله وسيرة السلف الصالحين مستمرة، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لا يتوقف، واستقامتهم في الأعمال مضرب الأمثال، ونشرهم للعلم كما لم ينشر في أي مكان.

وكان الأئمة في تاهرت يبعثون إليهم، فيخبرونهم في الولاة فكانوا – يجتمعون ويتشاورون ثم يبعثون باسم من يقع عليه اختيارهم إلى الأمام، فترد اليهم الموافقة عليه. فلما انقرضت الدولة الرستمية صاروا يجتمعون فيختارون من بينهم من

يثقون في دينه وخلقه وعلمه، فيسندون اليه أمورهم، ويولونه شؤونهم، وقد استمروا على هذه الحال حتى مجئ الأتراك وامتداد الخلافة الإسلامية في ليبيا.

السَّمْحُ بن أبي الَخطاب

بقــي الإباضية في ليبيا بعد قتل أبي حاتم شــبه مســتقلين عن جميــع الحكومات فعمــال الدولة العباســية لا يجرأون على مطالبتهــم بشــيء، وعبدالرحمن بن رســتم لــم يطلب منهم الطاعــة، رغم الــولاء المتبــادل، واعترافهم بإمامتــه فلما تولي الإمامة عبدالوهــاب بن عبد الرحمن واســتقرت الأمور، واطمأن إلى ارتياح السكان، وانتشار السلام، وخمود الحروب والثورات، فكر في تفقد أحوال الإخوان في كل من الأراضي التونسية والأراضي الليبية، وقرر أن يقوم بذلك وهو في طريقه إلى الحج.

وكان النــاس يقبلون عليه ويقدمون له البيعة، فيولي عليهم ولاة يوصيهم أن يســيروا سيرة الســلف الصالحين، ولما وصل إلى الأرضي الليبية ودخل جبل نفوســه أجتمع إليه العلماء الأعلام، ودرســوا معه موقف الدولة، وما ينبغى للإمــام فعله، وصارحوه بأنهــم لا يوافقونــه على قيامه بالحج، فإن أعــداء الإمامة الذين يتحينــون الفرص للإنقضاض عليه، لا يقفــون مكتوفي الأيدي، وقــد دخل ممالكهم وحيداً فريداً بدون جند أو أعوان، واقتنع الإمام برأي هؤلاء العلماء الناصحين.

ولكنــه أراد أن يطمئــن، فبعــث برســالة إلى علماء المشــرق يســتفتيهم في أمره، ويســتوضحهم مشــكلته فــي حق ربه،

ووصل الرسول إلى أئمة الإباضية في العراق ورجع بالرد.

أمــا الإمام المحدث الربيع بن حبيب فقــد أجاز له أن ينيب عنه أحداً يقوم عنه بالحج مادام مشــغولا بأمر المسلمين. أما العلامة ابن عبــاد فأفتى له بســقوط الحج لعدم أمن الطريق بالنســبة إليه، وأمان الطريق شــرط أساسي في وجوب الحج، وطلب للإمام العظيم أن يقيم في جبل نفوســه وأن يتخذ قرية " ميرى " مقراً له. هذه القريــة الصغيرة التى أصبحت اليــوم خراباً، وكانت في ذلك الحــين مركزاً من مراكز العلم والديــن والخلق العظيم. وبني هنالك مســجده الفسيح الذي لا يزال منصباً إلى اليوم في ربوة شامخة يطاول الزمن، ويستعرض التاريخ، ويحتفظ باسم الإمام العظيــم، والذي لا يــزال أبناء القبائل المجاورة مــن الرجبان يلوذون بعدله فيضعون في حرمــه نتائج زراعاتهم فلا يتعدى عليها ولا تنالها اللصوص.

طابت للإمام الإقامة في هذا الجبل، وانصرمت ســبع سنوات كأنهــا ليلة واحدة، وكان يعيش كما يعيش المســلمون، وكان من أهم مايشــغله التدريس، فكان مسجده هذا من أعظم المدارس التى نشرت العلم وهدت الناس، لقد كانت حلق الطلاب تتعاقب عليه أكثــر النهار وزلفا من الليل، وكانت دروس الوعظ والإرشــاد وشرح أسرار الإســلام للناس من أهم ما يتناوله الإمام العظيم، علــى أن أعظم موضوع أخذ الوقت منه وحرص أن يتفهم الناس أســراره ومعانيه هــو موضوع الصــلاة، هذا الركن الــذي يجعل المســلم يناجــي ربه عــدداً من المرات فــي اليوم، ويســتلهم منه الرشــاد والهداية والتوفيق والذي لا يزال يتقرب بفرائضه ونوافله

إلى الله، حتى يحبه.

ولكثرة ما أنشغل الإمام بتدريس موضوع الصلاة على الناس، بالغ بعض المؤرخين فحسب أن الموضوع الوحيد الذي انشغل الإمام بتدريسه سبع سنوات في جبل نفوسه – هذا الجبل التى كان حينئذ يموج بالعلماء الأعلام – هو موضوع الصلاة فقط، والحقيقة أن الإمام العظيم كان يتناول جميع فروع العلم، ولكنه حبب إليه موضوع الصلاة، فكان لا يناجي يوم إلا ويتحدث عنه.

وعندما فكر في مغادرة ليبيا والرجوع إلى مركز الخلافة، اجتمع إليه الناس وطلبوا منه أن يولي عليهم عاملا يفصل مشاكلهم، ويجمع منهم الحقوق ويوزعها على مستحقيها، ويتولي قيادة الدفاع إذا هاجمهم عدو. فخيرهم الإمام فاختاروا السمح بن أبي الخطاب المعافري ؛ وكان السمح في مقام الوزير للإمام، يلازمه دائما، فيعرض عليه المشاكل، ويستشيره في النوازل، ويكل إليه الفصل والتدبير في كثير من الأمور، ولا يكاد يستغنى عنه في شأن من الشؤون، فعز عليه أن يفارقه، إنه من أعز أصدقائه إليه، وهو أخلص مستشاريه وأحب أصحاب الرأي والعلم إليه. فحاول أن يرضيهم بغيره، ولكنهم أصروا على موقفهم وألحوا عليه فيه، فاضطر أن يستجيب لهم، وأن يؤثرهم به وأن يقلده ولاية ليبيا – ماعدا شريطا رفيعا من الساحل كان تابعا للأغالبة – معتمدا في ذلك على دينه وأمانته، وعلى دينهم وأمانتهم، وشمر الوالي القوي عن ساعد الجد، واستعد لتحمل الأمانة في هذه الولاية الشاسعة، التى تشتمل عليمعظم

المملكة الليبية وبعض المملكة التونسية، لا يخرج منها إلا شريط ساحلي ضيق بقي للأغالبة بعد المعاهدة التى عقدت بينهم وبين الإمام عبدالوهاب سنة 196.

وتولي السمح تنظيم الولاية وترتيب القضاة، وأمراء الجند وجباة الزكاة، فساد الأمن، وانتشر السلام، ووجد الناس الحياة التى ينشدونها في ظل الإسلام، حرية في العمل والكسب، وكفاح لله، وعدل يشمل الغنى والفقير، والقوي والضعيف، وسيرة كسيرة عمال الخلفاء الراشدين، قوة في غير عنف، ولين في غير ضعف، وإيصال للحقوق إلى أصحابها من أكرم السبل وأقربها، فأحست البلاد الراحة والطمأنينة، وذاقت لذة العيش الهنىء، الذي لا يكدره الاستبداد ولا يشوبه الظلم، وماذا ينتظر من وال أخذ الدروس الأولى من أبي الخطاب عبدالأعلى ؟ وأخذ الدروس الأخيرة عن الإمام عبدالرحمن بن رستم ؟ وصحب الإمام عبدالوهاب ؟ إنه أقتبس الهدى والدين والخلق من ثلاثة أعلام، كان كل واحد منهم حجة من حجج الله في الأرض.

عندما مرض السمح مرض الوفاة، اجتمع إليه الناس، وطلبوا منه أن يوصيهم 8، فأوصاهم بتقوى الله واتباع الشرع الشريف، ونصرة الأئمة ما ساروا على الحق، واستقاموا على الطريق، وهى وصية وإن كانت مختصرة في ألفاظها، ولكن لا مزيد عليها لمستزيد، إن تقوى الله في السر والعلانية واتباع الشرع الشريف هو كل ما يطلب من مؤمن يطلب السعادة لنفسه في الدنيا والآخرة، أما قضية الأمة فقد لفت إليها هذه اللفتة الكريمة التى هي القاعدة التى تبني عليها سياسة الأمة، والتى جرى

عليها الإباضية منذ نشأتهم، فإن الأئمة أو الخلفاء الذين تسند إليهم الأمة مهلة الحكم، وتضع في أعناقهم أمانة الدولة، تجب لهم الطاعة الكاملة من هذه الأمة، ما أقاموا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وصاروا بسيرة السلف الصالحين، فإن انحرفوا عن هذا الصراط السوي وحادوا عن الطريق القويم، وخانوا الله والأمة في الأمانة، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ؛ وعلى هذا النمط كانت السيرة ؛ سيرة الولاة وسيرة الأمانة من هذه الفرقة في أزمنة الظهور وفي أزمنة الكتمان.

أبو الحسن أيوب بن العباس

بطل آخر من الأبطال الذين يملؤون الدنيا ويشغلون الزمان، يشهد له أبو العباس الشماخي بأنه : " من أهل التقى والصلاح، والاشتهار في طرق الخير وسبل الرشاد ".

ولكن هل تكفي هذه الشهادة للدلالة على منزلة الرجل في عصره، ومقامه بين قومه، وأثره في الحياة ؟ إن أبا العباس الشماخي من أولئك المؤلفين الحريصين على الدقة في الوصف، والصدق في الحديث، وهو يختار كلماته اختياراً يقصد ما ترمي إليه من معان، وتؤديه من أغراض ؛ ولذلك فإن هذه الجملة القصيرة التى وصف بها هذا الفارس البطل بالأشتهار في طرق الخير وسبل الرشاد، قد تقتضي من مؤلف آخر عدداً طويلا من الصفحات ليدل بها على هذا المعنى الكبير العميق.

إن الشهرة في طرق الخير وسبل الرشاد أمراً ميسوراً يستطيع أن يحصل عليه الإنسان بعمل يسير، أو كفاح قريب، أو مظهر خادع غرار، وحتى لو استطاع الإنسان أن يحصل على شهرة في جانب من جوانب الخير، فإن هذه الشهرة الكاذبة سرعان ما يبدو زيفها، وتتضح حقيقتها، ويزول البهرج الذي غطيت به.

إن الإنسان لا يمكن أن يشتهر في طرق الخير وسبل الرشاد إلا إذا اتخذ ذلك المبدأ يعتمده ويعتنقه ويعمل به لنفسه، ويكافح

مــن أجله، ويحاول أن يجعله مبدأ للنــاس جميعا يعتقدونه حقا ويعتنقونه مبدأ، ولايصل الإنسان إلى هذه الميزة إلا إذا كان عمل الخيــر خلقا يتحلى به، ويحمل من تحت رعايته على اتباعه ويدافع عنه في جميع الأحوال.

وإذا كان أيــوب بن العباس مــن ذوى العقائــد الثابتة، والايمان الراســخ، والخلق المتين، والعلم الغزيــر، إذا كان هذا الرجل يتحلى بجميع هذه الفضائل، وبما هو أكثر من هذه الفضائل، فإن له ميزة أخــرى يمتاز بها عــن الناس، وينفرد بها دونهــم، هذه الصفة : هي الشــجاعة التى لاتعرف التــردد أو الهزيمة أو الخور، إنها قوة القلب الكبير في قوة البدن الســليم الــذي وهبه الله الصحة والعافية والســلامة، وهو بهذه النعمــة التى خصه الله بهــا يثق في ربه ثقة لا تحســب للخــذلان حســاباً ويثق في قوته ثقة لا تخشــى الضعــف أو الخور، ويثق في مهارتــه وذكائه وعبقريته الحربية ثقة لا تخشى مراوغة أو مكيدة أو حيلة، وهذه الثقة بنفسه، جعلت الأمــة تثق فيه، وتعتمد عليه عندما يحزبها أمر أو يشــتد عليها كرب، ولعل في القصص الآتية برهانا على هذه الصفات الممتازة التى لا يتحلى بها إلا أفراد في تاريخ البشــرية الطويل. يقول عن نفســه: " لا أعلم من فاس إلى مصر فارســاً يبارزني " فهل يكون هذا القول من هذا البطل غروراً ســولت له به نفســه، ووسوس به إليه الشــيطان ؟ هل يكون هذا الإدعــاء باطلا عندما يجبهه بالحقائق ويصطدم بالأبطال ؟ إنه يتحدى نصف قارة كاملا، يزعم أنــه لايجد فيه من يقف له يرد له الضربات، ويكيل له اللطمات، ويغدق له كؤوس الشراب من حياض المنون المترعة.

إننا ولا شك سنتردد في تصديق هذا القول حين يعرض علينا في هذا الدعوى الفضفاضة الواسعة حتى نعرضه على التاريخ، وللتاريــخ حــق الحكم علــى صحة هــذا الإدعــاء أو بطلانه، فهل تكفى شهادة التاريخ ؟

كان عبد الوهــاب بن عبدالرحمن بن رســتم أميراً للمؤمنين، وخليفة للمســلمين على أغلب شــمال أفريقيا من مراكش إلى ســرت، ما عدا شريطاً ســاحلياً ضيقاً ينقطع في بعض الجهات. وثــار على الإمام جماعة من المعتزلة فــي الجزائر، لهم علم ولهم قوة ولهم بطولة. وتضايق الإمام من هذه الثورة التى كانت تهدد أمن الدولة والبلاد فاســتنجد بجبل نفوسه، وطلب منه أن يمده بمائة من خيرة الفرسان الشجعان، على أن يكون معهم ثلاثمائة من الفقهاء والمفســرين وعلماء الكلام، وتشــاور الناس في هذا الطلــب، وبحثوا أمر الإمــداد، وقرروا بالإجماع أنــه واجب عليهم، ولكنهــم فكروا في هذا الجيش الذي ســيكلفهم ويكلف الإمام مؤونة وتعباً، واقترح مقترح أن يختاروا أربعة أشــخاص يقوم كل واحد منهم مقام المئة، ووجد الاقتراح قبولا، فصادق عليه الجميع، ثم بدأت عملية الاختيار؛ إن الإمام يريد مائة فارس من الفرســان المغاوير، وهم يريدون أن يرســلوا إليه فارساً واحداً يقوم مقامهم ويغنــى غناءهم، ومن لهذا الموقــف غير هذا البطل الذي يتحدى نصف القارة كاملا في اعتداد وشجاعة، إنه الرجل المطلوب أو هو رجل الساعة كما تجرى تعابير السياسيين.

وعرض عليه القوم الطلب والاختيار، فهل فكر وتردد ؟

موقف صعب يوضع فيه الرجل أمام أقصى امتحان، إنه لم يكلف بالدخول في معمعة حرب يجالد الأبطال كواحد منهم، ولكنه وضع في مقام جيش يسير من قطر إلى قطر ليهزم جيشاً يهدد الإمامة. قبل البطل هذا العرض بإعتداد واستبشار، وبرهن أنه أحق رجل بالثقة التى وضعت فيه، واجتمع بزملائه الآخرين وقرروا المسير. قرروا أن يقطعوا هذه القفار الموحشة من جبل نفوسة الى غربي الجزائر، ليقفوا أصعب موقف وقفه بطل في التاريخ. ووصل أيوب بن العباس حتى ينتظره الموت، فاغر الفم، مكشر الأنياب. وعرض خدماته على الإمام وأعلن أنه مستعد أن يقوم مقام العدد الذي يطلبه الإمام من أبطال الكفاح ورجال الحرب، فكانت ذراعه القوية ؛ وسيفه البتار أقوى ضربة وجهها الامام عبدالوهاب إلى الواصلية من المعتزلة الذين طالما تحككوا بالإمامة، واعلنوا عليها الثورة أوالعدوان.

إن هذه القصة تشرح معنى الشهرة التى أشار إليها أبوالعباس الشماخي في أول هذا الحديث، فهل استطعت أن أكشف النقاب عن الغرض الذي أرمي إليه ؟ أم لا يزال يكتنفه الغموض ؟ إنه لو لا الشهرة بالسير في طريق الخير والرشاد ولولا الشهرة بالصلاح والسداد، ولولا الشهرة بالقوة والشجاعة والمضاء، لما اتفق شعب كامل على وضع ثقتهم في رجل واحد ينوب عنهم في الدفاع عن الكرامة في بلد بعيد يجهلون كثيراً من قوة أصحابه واستعداداتهم. ولو لا الشهرة لما اتفق شعب كامل على أن يقاوموا رجلا بمائة رجل. لقد سبق للتاريخ أن قص قصص الزعماء والأبطال. واشار إلى أن كلمة بعضهم

لا تسقط في الأرض، ولكن ذلك لم يكن لقوة الشخص نفسه، ولكن لمن يتزعمه، كما قيل : إن للأشتر ألف سيف يسلها غضبه، ويغمدها رضاه.

إن هذه القصة التى ترويها كتب التاريخ عن بطولة أيوب بن العباس، تكفي شاهداً على ثقته في نفسه، وثقة الناس فيه. واستحقاقه لتلك الثقة.

ولكن لماذا نقتصر على شاهد واحد وللرجل مواقف كثيرة لا تقل مجداً وعظمة ؟

اتفق الواصلية من المعتزلة فيما بينهم بعد أن أوقع بهم هذا البطل العظيم القوي وقتل أبطالهم وفرسانهم، وأذاقهم مرارة الهزيمة، اتفقوا أن يكيدوا له فيقتلونه غيلة إذا استطاعوا، وهم يعرفون أنهم لا يقدرون عليه مواجهة، ويعسر عليهم أن يجدوا منه غرة في الأحوال العادية، ولذلك فقد دبروا المكيدة الآتية.

إنهم قوم بداة يسكنون الخيام، ويرعون الأغنام، فلماذا لا يستضيفونه إلى حيهم، ويكثرون له أطائب الطعام والشراب، حتى إذا ثقل عليه وغلب عليه النوم وثبوا عليه وقتلوه.

وجاءوا يعرضون عليه ضيافتهم فقبل وهو يعرف أنهم أشد الناس حقداً عليه وبغضاً له.

ونصحه الإمام ونصحه الأصدقاء أن يرفض هذه الدعوة غير الكريمة، ولكن البطل العظيم أصر على قبول الدعوة وتشريف الحى بالزيارة. وركب مع القوم ووصل إلى الحي المحتفي المضياف، فقدم إليه العشاء الذي تعبت في إعداده بنات الحي : طعام

كثير، وشراب كثير، ولبن حامض كثير، وأكل هذا الرجل الشره الأكول. أكل حتى أتم الطعام، وأكل حتى أتم اللحم، وانتقى العظم. وشرب حتى أستنفذ ما في الركاء من البان. وكان القوم ينظرون إليه وهم يتغامزون مستبشرين فرحين ...

إنه يأكل كأنه في منزله، لا يتكلف ولا يتعفف، ولا يخاف ولا يحذر، ونتيجة ذلك سوف تظهر سريعاً، سوف يثقل عليه الطعام والشراب، وتأخذه سنة من النوم فيجدون الفرصة التى انتظروها بفارغ الصبر، وأعدوا لها الأسباب والوسائل. ولكن الرجل خيب ظنهم، فقد قام بعد أن نظف الأواني مما فيها من طعام، فصلى صلاة العشاء الآخرة، ثم تربع في مجلسه وبدأ يتلو القرآن الكريم، واستمع الناس إليه، فأطال، وبدأ الملل يتسرب إلى نفوسهم، والنوم يهز أعناقهم ويؤرجح رؤوسهم، وطالت التلاوة وامتدت حتى بلغت صلاة الفجر، فصلاها ثم أستاذن رجال الحي في الرجوع. إن الفرصة الأولى قد ضاعت إلى غير رجعة فما العمل ؟ وفكر أذكى القوم وأشجعهم فقال : لو طلبنا منه أن يعلمنا الفروسية حتى إذا لاحت لنا منه غرة قتلناه، وتكفل أن يقوم بمهمة القتل. وأعجب الشباب بالفرصة الثانية واستعدوا لها، وحمل رئيس القوم سيفه وجاء إلى المحارب المقدام يعرض عليه ملتمس الشباب، فأجابهم إلى ما طلبوا، واصطفوا على مقربة من الحي، وبدأ الدرس.

كان الشباب يحملون عصياً في مقام السيوف، وكان الفارس الكبير يدربهم على مقارعة الأقران ومجالدة الفرسان، وأساليب الكر، وخدع الفر، حتى ظن رئيس القوم أن صاحبهم قد استغرق

في الدرس ونسى الحذر، وأمكنته منه الفرصة، وواتته الغرة التى كان يتحينها، فوجه الضربة القاضية فيما يظن، ولكن الفارس الذي عرف نوايا القوم مقدماً، ولم يغفل عنه لحظة عين، راغ عن الضربة، واتجه إلى يمينه فقتل، واتجه إلى يساره فقتل، وأطلق بقية الفتيان أعنّة خيولهم، وأوغلوا في الفرار، فالتفت الشيخ إلى نساء الحي وهن يعولن وقال لهن : أزيدكن أم كفاكن ؟ فصحن به كفى كفى، ولكز جواده فطار به إلى تاهرت عاصمة الأمامة ومقر زملائه الذين كانوا ينتظرون في كل لحظة أن يوافيهم خبر مقتله، ولكن أيوب بن العباس الذي يتحدى الفرسان ما بين فاس ومصر عاد سالماً موفوراً ...

إن هذه القصة صورة أخرى من صور الشجاعة والبطولة والثقة بالله وبالنفس. يذهب البطل إلى عقر دار العدو.. العدو الذي لا يتورع عن الغدر والخديعة والغيلة، يذهب ليأكل طعامهم ويشرب شرابهم ويبيت بين أعدائه في حيهم، ويسلك في كل ذلك سلوك الرجل المطمئن المؤدب حين يكون مع أعز الأصدقاء وأوفى الأحبة الذين يكرمونه بكل ما تميل إليه النفس والشهية.

إن هذا الرجل بهذا السلوك نادر من نوادر البشرية في خَلْقه وفي خُلقُه، وفي دينه وأمانته وعلمه وثقته بربه وبنفسه.

وصل إلى تاهرت بعد سفر شاق قطع فيه آلاف الأميال في صحاري قاحلة جرداء. ومهما كانت قوة الجواد الذي أعده لهذه المغامرة الفريدة في التاريخ، فإن التعب لا بد أن يلحقه. إنه

يتكــون كما تتكون جميــع المخلوقات الحية من لحــم ودم وعصب، ولذلك فقد طلب من الإمام أن يعطيه جواداً يستطيع أن يدخل به المعركــة ويقارع عليــه الأبطال، واســتجاب الإمــام العظيم للبطل العظيــم فخيره في خيول الدولة و قــد كانت الدول في ذلك الحين تســتمد بالخيول] وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْـتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِــن رِّبَاطِ الْخَيْـلِ [ودخل البطل إلى اســطبل الدولة وبدأ يختار الجياد واحداً واحداً فهل وجد ما يرضيه ؟ وهل نجحت خيول الدولة في هذا الامتحان الذي يقوم به هذا البطل الليبي العتيد ؟ لقد كان يمســك بناصية الجواد ويجذبه إليه فيقــع على ركبتيه، ولم يزل كذلك بها حتــى اختبرها جميعاً، وحينئذ رجع إلى هذا الجواد الذي قطع الصحراء، وظن أن التعب أنهكه وطول السفر أضناه، فلما أمســك بناصيته وجذبه إليه لم يستجب له الفرس ولكنه رفعه إلى أعلى في اعتزاز وخيلاء تجيدها الجياد. عند ذلك انطلقت من شــفتى الفارس الكبير هذه الكلمة التى تدل على الإعجاب والإعزاز والحب لهذا الجواد الأصيل : " البركة في البرذون " فضربت مثلا، وكلام هؤلاء الفحول كله مثل وعبرة.

هــذا بطل عــرف الإمــام عبدالوهــاب دينه وخلقه وشــهرته بالصلاح والتقوى وعرف شجاعته وقوته وثقته في ربه وثقته في نفسه وعمله الخالص لله والأمة، فلما بلغه خبر وفاة عامله على ليبيا، هذا القطر الــذي كان يعرف في ذلك الحين " بحيز طرابلس " ويعنــون بذلك جميع الأراضي الواقعة ما بين ســرت والقيروان وجبل دمر ما عدا طرابلس المدينة.

لمــا بلغــت الإمــام وفاة عاملــه الســمح، ذلك العامــل الذي

تتلمــذ عن أعظــم إماميين في ذلــك العصر، وهمــا أبو الخطاب وعبدالرحمــن، ثــم دربه علــى شــؤون الإدارة الإمــام عبدالوهاب، الإمــام العالم القوي فــي دين الله، كان من أوائل الأســماء التى قفــزت إلى ذهــن الإمام : أيوب بن العباس، ومنذ ذكره لم ينســه، ولم يســتطع اســم آخر أن يطغى عليه رغم كثرة العظماء في ذلك العصر. إنه لم يفضل عليه حتى بعض زملائه الذين سافروا معــه في الوفد، والذين قد يفوقونه علماً ومعرفة، ولذلك رأي أن يحمله هذا العبء الثقيل وهو مطمئن إلى أنه أسند الحمل إلى أكفــأ رجل يســتطيع القيام به. ولما استشــار بعض خواصه من أهل الشــورى وافقوه فأرســل إليه يوليه مكان ســلفه العظيم السمح المعافري.

تولــي العمــل وقام به كما قام به ســلفه، قوة فــي دين الله، ومحافظة على شــرع الله، وعــدل بين جميع النــاس في الحقوق والواجبــات، وحفاظ على الأمن والســلام، حتــى كانت أيامه خير وبركة ورخاء.

أبو عبيدة عبدالحميد

عندما توفى البطل العظيم أبوالحسن أيوب بن العباس أصابت الإمام حيرة وربكة فيمن يختاره ليقوم بالعمل في ليبيا، من هذا الرجل الذي يستطيع أن يقوم مقام أيوب بن العباس ؟ ويملأ فراغه ؟ ولا تعنى هذه الحيرة أن الأبطال كانوا قليلا في ذلك الحين، أو أن المسلمين المخلصين الذين يوثق بدينهم وخلقهم، ثم هم يقوون على تحمل أعباء هذه الأمانة التى توضع في أعناقهم كانوا من النزرة بحيث يبحث عنهم الباحث فلا يهتدى إلى واحد منهم إلا بعد عناء. ليس هذا ما تعنيه حيرة الإمام، وإنما احتار الإمام لأن عدداً جما تتوفر فيه شروط الكفاءة للقيام بهذه المهمة، ولم تتبادر الى ذهنه ميزة خاصة بأحدهم حتى يكون ذلك سببا لإناطة هذا الواجب به، ولذلك بعث إلى نفوسه يستشيرهم في الأمر، ويخيرهم في الوالي الذي يضعون بين يديه مقدراتهم، واجتمع أهل الشورى وبحثوا الموضوع من جميع أطرافه، واستعرضوا الرجال الأكفاء، واحداً واحداً، وأخيراً قر رأيهم على أبي عبيدة عبدالحميد الجناوني ؛ فأخبروه أنهم رشحوه لأن يتولي أمروهم، وأنهم كتبوا بهذا الترشيح الى الإمام، وما عليه إلا أن يستعد للقيام بهذه المهمة الخطيرة. ولو كان أبو عبيدة من أولئك الرجال الذين يطلبون الدنيا، ويبحثون عن الجاه ويلتمسون

وسائل السلطة، لو كان من هؤلاء لطار فرحاً، ولامتلأ غبطة، ولكنه كان مؤمنا مخلصا في إيمانه، تقيا صادقا في تقواه، فلما أبلغ القوم اختيارهم له، وتكليف الإمام له، امتنع كما امتنع سلف 12 له من قبل عن تولي الأمامة، وبذل الشعب كل وسيلة ليحملوا الرجل على قبول هذا الشرف الذي توليه إياه الأمة والإمام، فلم يقبل، وكان جوابه لهم في كل محاولة قوله : أنا ضعيف : أنا ضعيف : أنا ضعيف، يكررها في إصرار وتأكيد، ولما لم يتمكنوا من إقناعه كتبوا إلى الامام برفض أبي عبيدة واعتذره لضعفه.

لو كان القوم طلاب دنيا لتبدل وجه التاريخ ولسخر الإمام من هذا الرجل المغفل الذي يعرض عليه الجاه والسلطة فيزور عنها، ولأناط الإمام هذا الشرف بغير هذا الرجل الجامد العزوف، لكن الإمام لم يكن من أولئك الناس الذين ينظرون إلى الأشياء بقيمة الحياة الدنيا، ولكنهم يزنونها بميزان الإسلام، فلما وجد هذا الرجل الذي يفر بدينه في حرص وتشدد، عرف أنه وقع على أصلح رجل للأمر، وان هذا الرجل حقيق أن لايخاف غير الله، وأنه لا يطمع في غير الله، وهاتان الصفتان هما أكرم الفصائل التى يجب أن يتجلى بها من يلي أمراً من أمور الدولة.

بعث الإمام رسالة أخرى يؤكد فيها أمره الأول بتولية أبي عبيدة، وأقسم في هذه الرسالة بكل اللغات التى يعرفها أن لا يولي أمر المسلمين إلا رجلا يخاف ضعف نفسه، ثم حلل العذر الذي اعتذر به أبو عبيدة فقال : " إن كنت ضعيف البدن فتول

أمر المسلمين والله يقويك، وإن كنت ضعيفا في المال ففي بيت المال غناء للجميع، وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبي زكريا التوكيتى "، إنها رسالة من راع يعرف كل شئ عن رعية هو مسؤول عنها أمام الله، وأصبح أمر الإمام واجب الطاعة حتى التنفيذ، ولو كان متردداً، إنه يطلب مهلة للتفكير وتقليب الآراء، ولذلك طلب من إخوانه الذين يمسكون برسالة الإمام، ويطلبونه بالتنفيذ أن يمهلوه إلى الغد ليستشير.

من يستشير أبو عبيدة ياترى ؟ ومن هذا الرجل العظيم الذي يلجأ إليه أبو عبيدة يلتمس منه الرأي والنصيحة ؟ لعله أبو زكريا التوكيتى ؟ لعله أبو مهاصر ؟ لعله أبو زيد ؟ لعله أبو مرداس ؟ لعله واحد من عشرات العلماء الأعلام الذين تغص بهم المدن والقرى في ذلك الحين ! ... لا !! لا !! إنه لم يكن واحد من أولئك، إنه آخر من يخطر على بال شباب اليوم، الشباب الذي يدعو إلى تحرير المرأة، وهو يعتقد أن معنى حرية المرأة أن تنطلق في الميادين العامة شبه عارية تزرع الفتنة، أو تدخل سكرتيرة في مكتب المدير لتعمل عمل المنبه في إثارة الأعصاب الغافية، أو مضيفة تسلى الركاب باللفتة والبسمة، أو موظفة تندس بين صفوف الموظفين تحمل أيديهم على العمل بشهوة عيونهم الزائفة التى تحملق في جوع إلى وجهها الجميل أو قدها المياس، أو متنزهة تزاحم الناس في المراكب العامة، والمجالس العامة، والميادين العامة، تزاحمهم بالصدر والعجز، فإن لم تفعل ذلك واحتفظت لنفسها بكرامتها، ولزوجها بجمالها، ولولدها بحبها وحنانها حسبت أسيرة لا تخدم المجتمع.

ولكن الواقع غير ذلك، فلقد استطاعت المرأة المسلمة في مختلف أدوار التاريخ – وهى محتفظة بكرامتها – أن تؤدي للأمة والمجتمع أجل خدمة، دون أن تغمز بعين، أو تميس بقد بين أنظار الجائعين، أو أن تكشف عن الصدر والنحر، وأن تطلى وجهها بالمساحيق، وتثقل ميزانيتها وميزانية زوجها بمصاريف الازياء والتجميل.

قلت إن أبا عبيدة ذهب يستشير المرأة، المرأة الكريمة العالمة، التى يجهل شاب اليوم ماضيها المشرق في العصر الذهبي للإسلام، كانت هذه الشخصية العظيمة التى فزع إليها أبو عبيدة والتى كان رأيها أرجح من رأي جمع غير قليل من أفذاذ الرجال، والتى استطاعت أن تخضع هذا الرجل العتيد لإرادة الأمة والإمام وأن تقنعه بالحجة والبرهان، كانت هى " مارن " العالمة الذكية البارعة، جدة المشائخ : هذه المدرسة التى لا تزال آثار مدرستها تطاول الزمن في القرية الجميلة " الجمارى " هذه القرية التى تنحنى بدلال على الزرقاء الفاتنة، وترنو في حب وإعجاب إلى زميلتها " مزو " إنهما قريتان شاعريتان تحضنان وادي الزرقاء الجميل، إحداهما تستقبل قبلة الشمس عند البزوغ والأخرى تتلقاها عند الغروب، عرض أبو عبيدة قضيته على جدة المشائخ، عرض عليها هذه المشكلة التى حيرته، وأقضت مضجعه، فماذا كان الجواب؟

إن العالمة العجوز لم ترد أن تبسط له في الرجاء، وأن تسند طلب المشائخ والإمام، وإنما وضعت المشكلة أمام حساب الضمير، وضعتها أمام المحاسبة النفسية التى لا يستطيع الإنسان أن

يتملص منها، إنك تستطيع أن تتملص من جميع الناس بالحق أو بالباطل، ولكنك لا تستطيع أن تهرب من ضميرك، ولذلك فقد قالت له : " إن تقدمت فأنت في النار، وإن تأخرت فأنت في النار " وأوضحت له مقدصدها فقالت : إن تقدمت وأنت تعرف أن في المسلمين من هو أكفأ منك، فأنت في النار، وإن تأخرت وأنت تعلم أنك أكفأ المسلمين، فأنت في النار، وصمت الرجل العظيم وفكر طويلا واستعرض الأشخاص حتى إذا اقتنع بالنتيجة رفع إليها رأسه، وهو يقول في صدق، وصراحة، وأسف : أما في الرجال فلا ! يعني أنه لا يعرف أن في الرجال من هو أكفأ منه للقيام بأمر المسلمين. وودع العجوز واستمد للقيام بالأمر، ورجع إلى المسلمين الذين ينتظرونه فأخبرهم باقتناعه وقبوله 13.

وسر القوم واستبشروا، ولكنهم كانوا يعرفون أن الفضل في حل هذه المشكلة يرجع إلى الجدة " مارن " ولذلك قال قائلهم، هلم بنا نزر " وقاية" هي خير من عمائمنا، والوقاية ما تضعه المرأة على رأسها ليقى ثيابها ما تدهنه به من زيت وغيره، وزار المشائخ الجدة وشكروها على ما قدمته لأمتها ودينها دون أن تقف خطيبة تتلوى على المنصة وهى تستعرض مفاتن جسمها أكثر مما تستعرض مواهب عقلها، وتستدر الإعجاب بجمالها أكثر مما تستدر الإعجاب بفكرها ورأيها ...

لماذا ياترى يصر الإمام ويصر المسلمون على تولية رجل يشكو الضعف، ويتباعد عن تحمل المسؤولية، وقد كانت البلاد مملوءة بالرجال الأكفاء.

إن الإمام ذكر حادثة من حوادث التاريخ التى تمر بالإنسان فتترك أثرها الذي لا ينسى ولا يمحى. إن مواقف البطولة والشجاعة والاستمساك بالحق هى المعايير التى تقاس بها الرجولة عندما تناط الأعمال.

زار الإمام عبدالوهاب طرف المملكة في الشرق هذه القطعة التى نسميها اليوم ليبيا، واتخذ مقره في قلب جبل نفوسه في قرية " ميرى " من بلد الرُّجبان اليوم، هذه القرية التى أندثرت ولم يبق منها إلا المسجد العظيم الذي بناه الناس للإمام عبدالوهاب، يلقي فيه المحاضرات العلمية، ويتولي فيه التدريس والصلاة والفصل في مشاكل الناس، ذلك أن الأئمة العدول لم يكونوا يترفعون عن العامة ولا يبتعدون عنهم، ولا يتخذون مجالس خاصة بهم لا يصلها إلا المقربون بعد استئذان، إنهم كانوا يقومون بأعباء الدولة بين جموع الأمة وفي المساجد التى هي بيوت الله يؤمها جميع المسلمين، وبقي الإمام الكبير وطاب له البقاء. فانصرمت من الزمن سبع سنين، وكان بعض مرافقي الإمام خافوا على أنفسهم العنت فتزوجوا عدداً من إماء بني زمور، وولد الأمة هو ملك لسيدها لا لزوجها كما ينص الشرع الكريم، وعندما ركب الإمام للرحيل وركب رفاقه معه، أخذ كل واحد منهم ولده من الأمة التى تزوجها، وشغل الإمام بالوداع، فغفل عن هذا الموضوع، واستحي الناس، استحى العلماء والقضاة والعمال أن يتكلموا، وأن يؤلموا خواطر هؤلاء الضيوف الذين رافقوا الإمام في آخر لحظة، لحظة الوداع، ولكن أبا عبيدة لا يخاف شيئاً في الحق، ولا يجامل عليه أحد، ولا يساير حتى

الإمام نفسه. ولذلك فما سمع بالحادث حتى جاء والناس في موقع الوداع. فلم يستأذن الإمام ولم يهمس في أذن العامل أو القاضى بكلمة لطيفة أو توسل ذليل. ولكنه صرخ بما يملك من قوة الصوت : " خذوا عبيدكم يابني زمور" إنه حكم الله. ولن يسكت عن مخالفة حكم الله ولو غضب البشر جميعاً.

وكان هذا الموقف الصلب الصريح القوي. الذي لا يحابى ولا يلين. هو الميزان الذي رجح به أبو عبيدة على غيره من الأقران في نظر الإمام. لقد أقر الإمام أمر أبي عبيدة وأعجب به. ولما جاء مجال الاختيار بين من تسند إليه مهام أمور المسلمين ذكر الإمام صلابة الرجل في الحق. وقوة إيمانه وعلمه وحصانة خلقه. فأصر على توليته. وتولي أبو عبيدة.

لقد كان أبو عبيدة من أولئك المؤمنين القلائل الذين يفرقون بين المواقف ويعرفون متى تكون الشدة ومتى يكون اللين. إنه يترسم خطا الفاروق رضى الله عنه. لاتأخذه في الله لومة لائم. ولكنه إلى كل ذلك لا يرى نفسه إلا رجلا ضعيفاً قد ألقيت عليه تكاليف ينوء بها القوي الأمين. وهو إذا خرج منها سالماً فقد نجا.

ولذلك فقد كان شديد الاحتياط. ولكنه عندما يستبين له الطريق لا يتردد ولا يقف ولا يحيد. وعندما تولي شؤون الجبل. كان هناك " خَلَف14 " رجل ممن غرته الحياة. واستعبدته الشهوة. وأذلت نفسه المطامع. فاستهان بحرمة المال والدم. وطلب لنفسه الخلافة ليقيم ملكا كالذي أقامه طلاب الدنيا في كثير من نواحى العالم الإسلامي. وكان " خلف " يستعلى

ويتقوى في النصف الشرقى من الجبل الأشم. فلم يهتم له أبو عبيدة ولم يبال به. لأنه لم يكن من طلاب التوسع أو الراغبين في تمديد الحكم على أوسع رقعة. وإنما شمر للقيام بما أنيط به. والعمل على توفير أسباب الراحة والاطمئنان. فأعطى الحق. ونشر العدل. وبسط الأمن. كما فعل سلفه أيوب بن العباس. وسكت " خلف " في بادىء الأمر كأنه يزن هذا الرجل الجديد. فلما رآه لا يلتفت إليه ولا يتحكك به ظن فيه الضعف. فبدأ يناوشه ويغير على بعض القرى المتطرفة. ويتعدى الحدود بينهم. فطلب إليه العامل العالم الشجاع أن يترك هذا الاستفزاز. وأن يكف عن هذه الأعمال التى لا يقوم بها مسلم يرعى الله في دينه وفي عمله. ولكن " خلف " اعتز بالإثم. وواصل العدوان.

بعث خلف بعثة عسكرية من الفرسان فأغارت على حدود حوزة أبي عبيدة. وقتلت ونهبت في قرية (أدرف) التى لا تبعد عن (جادو) بما يزيد عن 6 كيلو مترات. ووصل الخبر إلى أبي عبيدة. وتحقق من وقوع الغارة. وعلم أن ما لايقل عن عشرة من المسلمين المسالمين أريقت دماؤهم ظلماً وعدواناً. وأنه قد استحلت أموال. وانتهكت أعراض. فقال لأصحابه لا يحل لنا السكوت بعد هذا العدوان. وخرج لتأديب هذه البعثة. فلقيت منه الصفعة المؤلمة التى يوجهها الأب أو المربي إلى خد الإبن العاق. او التلميذ الشرير.

ولما تولت هذه البعثة منهزمة فارة. أصدر أمره إلى جنده أن لايتبعوا مدبراً. ولا يجهزوا على جريح. وأن لا يستحلوا مالا. أو يغنموا شيئاً. إنه ذلك الموقف الذي عرفته من الخلفاء الراشدين.

وعرفته في سيرة الحارث، وأبي الخطاب،وأبي حاتم، إنه نفس الموقف لا يتغير إلا في الزمان والمكان ؛ سيرة عطرة، ووقوف عند حدود الإسلام، وتخلق بخلق الإنسانية الرفيع.

ورجع بعد أن ضرب هذا المثل الرائع، وبرهن أنه قوي حين تستدعى الظروف القوة، وعنيف إذا تطلب الموقف العنف، وشديد إذا كانت مصلحة الأمة تتوقف على الشدة، ولكن هذه القوة وهذا العنف وهذه الشدة لا تبلغ حد الطغيان، ولا تتجاوز الحدود التى رسمها الإسلام لرد العدوان، ولما رجع العامل القوي إلى مركزه، بعث رسالة إلى خلف يقول فيها وهو يرجو أن يحقن بذلك دماء المسلمين : " وإذا نزعت يا خلف يدك عن الطاعة فكن في حيزك وأكون في حيزى وما بال الحرب ".

ووصلت الرسالة إلى " خلف "، فماذا فهم ؟ إن الشيطان إذا نفخ بالغرور في قلب إنسان لا يترك فيه مجالا للإستبصار والرشاد.. إن " خلفاً " لم يفهم إلا أن أبا عبيدة قد كان له صفعة مؤلمة يجب أن يردها له بأعنف منها، وأن أبا عبيدة هذا ما بعث بهذه الرسالة اللينة الوادعة القائمة، وما رضى بإقامة الحدود بينهما إلا لأنه شعر بالخوف، وأحس في نفسه ورجاله الضعف، وإذا كان كذلك فلماذا لا يهجم عليه هجمة يستولي بها على الحوزة التى يتولي أمرها هذا الرجل الخائف الذي يقنع بإقامة الحدود.

إن تفكير " خلف " لا يسمو به إلى تفكير " أبي عبيدة " ولذلك فهو لايفسر الإلحاح في طلب السلام إلا بالضعف والخوف، لأنه لا

يقيم لأموال المسلمين ودمائهم وزناً، فهو من أولئك الرجال الذين يعيشون تحت ضغط الشعور بالحقارة، فهو يبذل كل مجهود ليكون لنفسه سلطة، وليظهر بين الناس بمظهر العظمة.

وأعد خلف عدته، وكون جيشاً لجبا، وهجم عليأبي عبيدة في حين غفلة، ولما بلغ الخبر أبا عبيدة كان الجيش المعتدي قريباً من مركز أبي عبيدة، فلاقاه بمن حضر من الرجال الأبطال، ولما تراءى الجمعان كان جيش أبي عبيدة لا يتجاوز ألفا، وكان جيش خلف لا يقل عن أربعين ألفا، وبدأت حرب الأعصاب، ولعب الغرور بقلب الفتى، فزين له الشيطان سوء علمه، فأطلق جمعا من جيشه اللجب في القرى المجاورة الوادعة، وفي الناس الآمنين المسالمين، يعتدى وينهب ويسلب ويقتل، ثم بعث إلى أبي عبيدة يطلب منه الانسلاخ من بيعة الإمام الرسمي، وبيعة خلف.

انقلاب في التفكير، وقلب للأوضاع، ونظرة حولاء لا تستبين الحق ولا تهتدي إلى سبيل الرشاد ؛ وحاول العامل الحكيم أن يقنع الوفد الذي يطالب بالبيعة لهذا الباغي الذي لا يفرق بين الحلال والحرام من شرع الله، ولا يلتزم الحدود التى حدها الإسلام، فلما ألزمهم الحجة، رجعوا إلى قائدهم يحملون إليه خبر الفشل وتصميم الرجل على الدفاع.

سلك أبو عبيدة كل طريق لحقن الدماء وإراحة المسلمين من مصائب الحرب ودمارها، ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلا. وفسر عدوه هذا الموقف النبيل، وهذا التحريج، بالخوف والخشية، بل لقد سولت لخلف نفسه أن يبعث لأبي عبيدة من يقول له : " دع

عنـك القتال، فإنـك لا طاقة لك اليوم بمقابلة خلف وعسـاكره، ولا حاجـة لـك في لقائه " 15. وغضب الرجل الشـجاع ! هل بلغ الموقـف بالطامعـين إلى هذا الحد ؟ هل ظن المغـرور أن أبا عبيدة لـم يتخذ هذا الموقـف إلا خوفا منـه، وطلبا للسـلامة، وتحاميا للسـيوف القواطع، وهنا بـرزت تلك القوة التـى يغطيها الرجل العظيـم باللين ؛ تلك القوة التى يودعها الله في قلب من يشـاء من المؤمنين الأوفياء..

إنه الغضب لله، الغضب الذي لا يبرد إلا بإحقاق الحق، فأقسم بكل لغة يحسـنها لهذا المغرور قائـلا : " لأقاتلن خلفاً، ولو ألقاه منفرداً بسـيفى هذا " وضرب بسـيفه على فخذه، ثم طلب ماء فاغتسل وتوضأ وصلى ركعتين لله، وتوجه إليه بقلب المؤمن الذي لايلجـأ إلا إلى الله فيمـا دق وعظم من أمره، وقـال في دعائه : " اللهـم يا من لم أعرض عنه منذ اسـتقبلت أمـره، لا تفرق هذه العصابة على يدي، إنك على كل شـيء قدير 16" وبعد ذلك تهيأ لرد العدوان وبدأت الحرب، ولكنها لم تسـتمر طويلا، فلقد انهزم الجيـش اللجب القوي، الذي يتكون من أربعين ألفاً، وانتصر الجيش الصغير الذي لم يبلغ ألفاً من الأبطال.

وعندمـا ولى المنهزمين الأدبار، صاح أبـو عبيدة بصوته القوي الأمر الذي يعرفه المؤمنـون إذا حاربهم البغاة من الموحدين، صاح فـي أصحابه : لا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تتعرضوا لمسـالم، ولا تستحلوا مالا، فاستمع الجند لكلمة القائد المظفر، ووقفـوا عند حدود النصـر، فلم يبغوا، ولم يطـاردوا هذه الفلول المعتدية ليثخنـوا فيها الجراح، ويكثروا فيهـا القتل، ولم يذهبوا

إلـى أرضهم ليحتلوها ويطردوا منها خلقـاً فتذوب أحلامه، ولم يقطعـوا الرؤوس ليرسـلوا بهـا إلى تاهـرت، عاصمـة الإمامة، فيكون هذا الرأس وسـيلة أخرى يرتفع بها شـأن أبي عبيدة عند الإمام. إنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك، لأن الإسلام لا يبيح شيئاً مـن ذلك، وهـم إن لم يقفوا عند حدود الإسـلام في هذا الموضع فاحرى بهم أن لا يقفوا عند حدود في غير هذه المواضع. وانكمش خلف وتفرق عنه الأتباع، وتبخر الحلم الذي كان يملأ رأسه، ولكن أبا عبيدة لم يسـتغل هذه الظروف ليثب على تلك الحوزة فيدخلها تحت الطاعة، لأن الحكم عند إبي عبيدة وأضرابه لم يكن القصد منه جمع الضرائب واسـتغلال السلطة، وتكديس الثروة لترفيه صاحب السـلطان على حساب الشـعب، بسبب ما خول له من وظيفـة، وأسـند له مـن عمل ومنح لـه من ثقـة. ولكن الحكم فـي نظر أبـي عبيدة مسـؤولية تلقى على العاتـق، يتجرد فيها المسـلم المؤمن من أعماله الخاصة، ليتولي شـؤون الأمة العامة، فيتولـي قويهم بالتربية والتهذيب، ويتولـي ضعيفهم بالعناية والرأفة والرحمة، ويوصل الحقوق إلى أصحابها من أقرب السـبل فـي أقرب الأوقات، ويعدل في الأحـكام، ويوفر الأمن والطمأنينة والسـلام، وليـس له مقابـل ذلك غير مـا يقيـم أوده من طعام بسيط، ويسـتر ظهره من لباس بسـيط، لا ترف فيه ولا إسراف، وليس له بعد ذلك حق التصرف فيما يجمعه من مال ليضمن به مستقبله ومسـتقبل أبنائه، كما يفعل الناس في هذا العصر، لأن كل الخيرات التى تسـتخرج في زمن ما هي إلا حق لأبناء ذلك الزمـن، لا تدخر لغيرهم، ولا تمنح لسـواهم، أما المسـتقبل فبيد

الله، ولا يفكر فيه الإنسان، لأن تفكير الإنسان لا يمتد إلى ما بعد الحاضر، أو المستقبل القريب، وعلى هذا التفكير كان يعيش أولئك المسلمون، الذين حملوا رسالة الله، فقد مات محمد صلى الله عليه وسلم ولم يترك لبناته وأقاربه ما يمكن أن يورث، وعاش أبو بكر رضى الله عنه على القوت الضروري، واللباس الضروري، وخدم عمر الأمة الإسلامية خدمة بلغت النهاية في الإخلاص والتضحية، وفتح لها وبها مشارق الأرض ومغاربها، وكانت زوجته الحبيبة طوال خلافته تتمنى قطعة من الحلوى ! الحلوى الرخيصة التى توجد في بيوت المتوسطين والفقراء، فلم تظفر زوجة أمير المؤمنين الغالية بهذه الأمنية الرخيصة، وعندما اقتطعت ثمن هذه الحلوى من القوت الضروري الذي كان يتناوله عمر وآل بيته، رأي عمر أن ذلك زائد عن استحقاقه اليومي، فرده إلى بيت المال !

إنه لم يأخذ من الأمة حتى حق الأجير الذي يعمل في الحقل أو المصنع، ولم يطالب بتحديات ساعات العمل ليكون الوقت الباقي لنفسه وأهله وعياله، وعلى هذا النمط كان يسيرأولئك العمالقة الذين يسهرون على شؤون الأمة، ليلهم ونهارهم، ويؤرقهم أن يبيت فرد من الأمة عاريا أو جوعان، و يحز في نفوسهم أن يتعطل حق من الحقوق، فلا يصل إلى صاحبه في أسرع وقت.

إنهم وقد تقلدوا هذه المسؤولية العظمى، وتحملوا تلك الأمانة الغالية، ووضعت فيهم تلك الثقة العظيمة، حسبوا أنهم أقل من أُجَراء فوضعوا أنفسهم وأموالهم ومالهم من قوة البدن، وقوة العلم، وقوة الفكر، وضعوا كل ذلك لخدمة الأمة،

وهم يشفقون مع ذلك أن تكون أعمالهم تلك غير مقبولة عند الله، إن تولي الإمارة والقيام بمهمة الحكم في الأمة الإسلامية، لا يعني سوى تضحية الفرد، تضحية كاملة، ينسى فيها نفسه وأهله وقرابته من أجل هذه الأمة التى أولته الثقة، وحكمته في مصيرها وشؤونها.

تحدث أبو العباس الشماخي عن البطل الذي يندر أن تجد له مثيلا فقال: " وكان أبو عبيدة شديد الشكيمة، قوى العريكة، لا تأخذه في الله لومة لائم ".

إنها شهادة رائعة من مؤرخ أمين مطلع على أسرار التاريخ، عارف بسير الرجال، فهل لأبي عبيدة شواهد من هذا التاريخ تسند هذه الشهادة، وتثبت هذا الحكم. ؟

إن الباحث الذي يريد أن يدرس حياة هذا العامل الصادق المخلص يجد في سيرته عشرات الشواهد والشهادات. ويكفي عن كل ذلك فيما يظن، شهادة أربعة أعلام أجمعت أمتهم حينئذ أن كل واحد منهم يقوم مقام مائة. إنهم الوفد الذي سافر من جبل نفوسة إلى تاهرت، لينصروا الإمام في الميدانين العسكري والعلمي، ولما أعجب بهم الإمام سألهم : هل تركوا أحد في الجبل يبلغ ما بلغوا إليه من العلم والخلق والدين. قالوا : تركنا من هو خير منا18: أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني، فكانت هذه الإجابة منهم أو كد شهادة عرفها التاريخ في الاعتراف بالحق والفضل.

وشاءت إرادة الله أن يزور الإمام عبدالوهاب جبل نفوسة – هذا

الجبل الشامخ، الضارب في السماء الذي نسميه الآن : الجبل الغربي – في حاشية عظيمة من أهل العلم والفضل والادب، وأن يختار قرية " ميرى " التى تعتبر قلب الجبل في ذلك الوقت مركزاً لإقامته، وأطلق سراح الخيل بعد عناء السفر الشاق، هذه الخيل التى حملت الركب العظيم من تاهرت الى جبل نفوسة، فتساهل الرعاة في حفظها إكراماً لها، واحتراماً لمن جاء عليها، فدخل بعضها إلى الغابة، ونالت من هذه الغابة التى يحرص الناس عليها، لأنها مدار زراعاتهم، ومنبت أرزاقهم، وكان أبو عبيدة في ذلك الحين رجلا عاديا من سائر الناس، لا يمتاز عنهم بشيء غير ما يقدمه لربه، فلما سمع بوصول الإمام إلى قرية " ميرى " وبتهاون رعاته في رعاية الخيل وحفظ المزارع منها، خف إلى ملاقاة الإمام، لا ليسلم عليه، ويرحب بمقدمه، ولا ليتملقه ويتزلف إليه، لم يخف إليه لذلك، ولم يذهب إلى الإمام ليرفع اليه الشكاة، ولم يراع سلسلة المراتب، فيتقدم إلى العامل أولا، ليكون هذا العامل هو واسطة الحديث، ولكن وقف أمام الإمام وقبل أن يرفع إلى اعتابه العالية، ومقامه السامي، أرق التحايا، وأخلص النوايا، كما يفعل المتملقون من طلاب الدينا، الذين يتزلفون للحكام، قبل أن يفعل شيئا من ذلك، صرخ بصوته القوى، الذي يعتز بالإسلام وبالحق، قال : " إنه الرعاة عن المضرة، إن لم تعرف فقد اعلمناك، والا فصل بيننا هذا "19وهز السيف في وجه الإمام الضيف.

كان الإمام ينظر إلى هذا الرجل الخشن القوي العنيف في أعجاب، ثم سأل عنه من يكون ؟ فقيل : أبوعبيدة عبدالحميد،

وذكر الإمام شهادة الوفد في تاهرت، فقال : صدق الشيوخ، هو مثلهم أو خير منهم.

ثم ابتسم الإمام في بشر وتواضع وأصدار أوامره المشددة على الرعاة لتحرص على حفظ أموال المسلمين.

فهل تكفى هذا الحادثة لتكشف عن الخلق العظيم الذي يتحلى به هذا المسلم المؤمن. إنك تستطيع أن تضعه في صف مع ذلك المؤمن الذي أجاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين هدد بإمالة رأسه الى الدينا فقال له : إذن نقومه بالسيف فحمدَ عمر الله أن جعل في المسلمين من يملك من القوة والشجاعة ما يردع به حكام الدولة، ويلزمهم السير في الطريق اللاحب الذي اختاره الله ورسوله لسلوك البشرية الواعية.

إن أول عمل قام به أبو عبيدة بعد أن تولي أمر المسلمين في الجبل أن أدب رجلا دعا بدعوى الجاهلية فقال : ياآل فلان، يستنجد بقبيلته. وإنك إذا أردت أن تعرف من أ عماله مثل هذه الحادثة، فستحتاج إلى صفحات كثيرة.

إن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ خالص يحصى الخطوات ويسلسل الحوادث، ويربط الأحداث بعضها ببعض. إنه صور مشرقة من أولئك الذين ملأوا الدنيا حقاً وعدلا ومروءة، وشهامة واستقامة، إنهم أولئك الذين كانوا على الإسلام الحق في حربهم وسلامهم، في عقيدتهم وعبادتهم، لم تمتد أيديهم إلى زخرف الدنيا بالباطل، ولم تلوث سيوفهم بالدماء المظلومة، ولم تمتزج عقيدتهم بالبدعة المنحرفة، ولم تمتزج عبادتهم بالخرافة الضالة.

ولعلـه من المناسـب أن أختم هذا الفصل بمـا جاء في كتاب السـير القيم : " وما إلى ما طبع عليـه من الورع، واطراح الحرص علـى الدنيا وترك الطمع، وكان غاية فـي إنفاذ الأمور وإمضائها، وقائما بالمدافعة لأحـوال البغاة ودفاعها،ووافيا بما أمر من إصلاح النفس والدين والدنيا وتحصينها، ولما ولى أحسن السيرة. "

العباس بن أيوب

بطل من أبطال الكفاح، ومؤمن من أخلص المؤمنين، رجل من أولئـك الرجال الذين خلقوا أقوياء لتحمـل الأعباء الثقال، أولئك الرجـال الذين يضعون أنفسـهم لخدمة الأمـة، وصيانة الدولة، وإقامـة الحق.. إقامة الحق دون نظر إلى مـن يقام عليه الحق.. ومع هذه القوة أناة يزينها الحلم، وتفكير تسدده الاستشارة، وتردد في بعض المواقف يفرضه استبانة الحق، واستيضاح الدليل ...

كتب مشـائخ نفوسـة إلـى الإمام فـي تاهـرت يعزونه في أبي عبيدة، ويطلبون منه إسـناد أمرهم إلـى والٍ آخر، يكون قويا فـي دين الله، حريصاً علـى المؤمنين، ففوض إليهـم أمر الاختيار، وأخبرهم أنه سوف يولي عليهم من يشيرون به. فتشاوروا وأجمع أمرهـم على العبـاس بن أيوب، وكتبوا إلى الإمـام برأيهم دون أن يخبروه.

أصـدر الإمـام أمر الولايـة إلى العبـاس، وبعث إليه برسـالة التوليـة، فلم يفرح بالمنصب، ولم يتهرب من المسـؤولية، ولكنه جمع الناس وأبلغهم رسـالة الإمام، واستشـارهم في أمورهم، ودرس معهـم ماجدّ من الحوادث والمشـاكل، ثم رتـب أموره، وهيأ نفسه للقيام بالمهمة العظمى الملقاة على عاتقه.

كان " خلف " قد انكمش بعد الضربة القوية التى وجهها إليه أبو عبيدة عندما غرته نفسه، ومنته الأماني، فهاجمه في مركز حكمه، ولم يتحرك بقية مدة ذلك العامل القوي. فلما توفى أبو عبيدة وبقيت البلاد بدون عامل، وانصرمت أيام طوال تجرى فيها المخاطبة بين رجال الشورى والإمام في تاهرت، تحرك الشيطان للعمل، ووسوس لخلف فأوحى إليه أن الفرصة سانحة، وأن هذا وقت العمل لتحقيق الحلم اللذيذ ؛ الحلم الذي كان يداعب خلفا ليرتفع إلى مرتبة السلطان، ويتربع على كرسي الحكم، وتحرك الرجل من جديد، وبدأ في تجهيز الجيوش وإعداد العدة فما يكون موقف العباس بن أيوب، أو توفيق بن أيوب كما يحلو لأبي مرداس أن يسميه.

بعث العباس بن أيوب العامل الجديد إلى خلف أن يكف عن العدوان، وأن يلتزم حوزته، وأن لا يتعدى على أموال الناس وارواحهم، ولكن خلفاً أخطأ مرة أخرى في فهم هذه الرسالة، وظن هذه الملاينة مرة أخرى ضعفاً وخشية لقوته، ورهبة من جيشه، فتمادى في غيه وأصر على موقفه، واستمر في عداوته، وسار بجيشه الكثيف، نحو مركز العامل الحريص على سلامة البلاد والعباد.

ولما علم العامل الفتى الشجاع هذا الموقف من خلف، ورأي منه هذا الأصرار والعناد، وسمع بمسيره نحوه، استعد له وكون حملة لتأديب هذا الرجل العاق، الذي ينحرف عن الإسلام، ويستحل ما حرم الله من دماء المسلمين وأموالهم، والتقى الجيشان داخل حوزة العباس وتراءى الجمعان ...

كان جيش خلف كالموج الزاخر، يضطرب بالفرسان، كثير العدد، حسن التجهيز، وكان جيش العباس عبارة عن حملة تأديبية، عبارة عن سرية صغيرة قصد منها رد العدوان، ورأي بعض ضعاف النفوس من جيش العباس، هذه الكثرة الهائلة في جيش العدو، وهذا الاستعداد المتين فخاف العاقبة، فذهب إلى أبي مرداس وهو من رجال الشورى الذين يؤثرون على قائد الجيش، ذهب إليه يكشف له عن رأيه، ويبين له أن العدو يفوقهم عدداً وعدة، ولكن أبا مرداس أجابه إجابة المؤمن الواثق بربه الراجى للنصر، العارف بقيمة الأبطال، الذين يحاربون إلى جنبه ؛ الأبطال الذين يحاربون عن الحق، ويرغبون الشهادة، ويثبتون على المبدأ، إن الفرق كبير جداً بين رجل يحارب من اجل جاه أو مال، ورجل يحارب من أجل حق وعقيدة ؛ إذ أن الأول إذا تعسر عليه الحصول على الجاه أو المال، تركها محافظة على الروح، محافظة على سلامة نفسه، أملا أن يجد فرصة أحسن، ووقتاً أكثر ملاءمة، أما الثانى : فإن أول ما يقدمه هو روحه، أو لذلك فليس له إلا أحد أثنين : أما النصر، وإما الشهادة، وليس له شئ يحافظ عليه، ويبقي على سلامته.

قال أبو مرداس : لا أخاف على جيش فيه أبو الحسن الأبدلاني. وسكت الرجل، ولكن الجواب لم يقنعه، إنه يريد جواباً عملياً، إنه يريد تأخير المعركة حتى يستعد لها كل الاستعداد ولذلك ذهب إلى أبي الحسن الأبدلاني في الطرف الأخر من الجيش، وأخبره نفس الخبر، وأطلعه على الحقيقة المخيفة ؛ أراه كثرة العدو واستعداده، وأراه قله جيشهم بالنسبة إلى عدوهم، ولكن أبا الحسن الأبدلانى أجابه إجابة الواثق بربه، العارف بصحبه، فقال

له : لا أخاف على جيش فيه أبو مرداس. وعجب الرجل من حسن الاتفاق وصدق الفراسة، وعظم الثقة في الله، واقتنع أن النصر لا يأتي من كثرة العدد وقوة الساعد فقط، ولكنه ينبع من القلب، ينبع من الإيمان ووقعت الحرب، وتصادم الجيشان، وطال بينهما النضال ...

لم ينهزم جيش الباطل بالسرعة التى يظنها المؤمنون الصادقون، فذهب أبو مرداس إلى العباس، عامل الإمام، وقائد الجيش العام، وقال له : "تب إلى ربك فما تأخر عنا النصر إلا لأن شيئاً ما وقع منك، وما كان للباطل أن يقف أمام الحق هذا الوقت الطويل.. " ولم يغضب القائد على هذا الرجل الذي يتهمه بالمعصية، ويحمله مسؤولية تأخر النصر، ولكنه قال في حرارة وصدق وأخلاص، اللهم إنى أتوب إليك من كل ذنب ارتكبته، ثم اندفع إلى الميدان، وصاح في القوم : اعملوا كما ترونني أعمل، ولم تمض على هذه التصفية إلا لحظات قلائل، حتى أنهزم الباطل بكثرته، وانتصر الحق بقلته، ووقف أبو مرداس وفلول جيش العدو تولي منهزمة مدبرة، وصاح في الجيش : لا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا مالا. ولكن جندياً في طرف الجند تحدى البطل العظيم، أحد أولئك الأفراد الذين لا تهمهم الشخصيات، ولا تعظم في أعينهم الأوامر، إلا إذا كانت متسمة بالحكمة والحق. وأعلن هذا الجندي العادي لقائد الجيش، ولأبي مرداس، أن فلول العدو لاتزال داخل الحوزة وأنهم سوف يطاردونهم حتى يخرجوا من الحدود، وعرف أبو مرداس الصواب في رأي الجندي البسيط، فسكت، ووافق القائد على هذا الرأي

فطوردت تلك الفلول حتى تجاوزت وادى الآخرة 22، وهو آخر الحوزة في ذلك الحين، وقضى منذ ذلك الحين على هذه الفكرة التى كانت تراود خلفاً، فلم يحلم بها من بعد، ولم ينهض لقتال.. انتهى خلف بعد هذه الصفعة المؤلمة، فلم يعد يحلم بالإمامة، ولم يطالب بالبيعة، ولم يعد يباشر عمل السلطان الغشوم ؛ يقتل الأرواح ويسرق الأموال، ولكن أولئك القوم الذين كانواناصرونه ويعقدون عليه آمالا طوالا، وتعودوا العدوان بالغارة، واستمرأوا طعم النهب والسلب، واستحلوا الأموال بالباطل، أولئك القوم لم ينفكوا عن موقفهم ؛ فكانوا يغيرون على أطراف الحوزة يقتلون ويسلبون ويغزون، ولما أصبحوا لا يجتمعون تحت إمرة قائد عظم خطرهم وكثرت غاراتهم، وتواصلت تعدياتهم، ولهذه الأسباب قرر العامل الحازم أن يقضي على هذا الفساد، وأن يفرض الأمن على البلاد التى لا تخضع لحكم ولا تتبع نظاماً، وكون جيشه القوي، وسار فكان الناس يتسابقون إليه مرحبين به منضمين إليه، وقد تعترضه شراذم متفرقة فتراق دماء، وتذهب أنفس، وكان أبو مرداس من أخلص المستشارين وأحرص المؤمنين على مصلحة الأمة، وأكره الناس لإراقة الدماء، فلما رأي تسابق الناس وترحيبهم بعامل الإمام، أمل أن يتوب أولئك العصاة المارقون دون قتال أو استعمال شدة، فجاء إلى العامل الذي يزمع التقدم بنصحه بالرجوع، ويطلب إليه أن يعطي القوم فرصة لعلهم يفكرون فينضمون إليه، أو يقلعون عن الشغب، ولكن العباس وقد استعد وصمم على إقرار الأمن، رأي أنه لاداعي للرجوع بعد أن أمن مجموعة من القرى والمدن، وأقبل الناس عليه

فرحين مستبشرين، وهو يأمل أن يتم هذه المهمة في أسرع وقت. فقال أبو مرداس ارجع وإلا صحت في الناس أن يرجعوا.. ولما رأي العامل هذا الإصرار من أبي مرداس استجاب له، ووقف خطيباً فقال : " أيها الناس نفذ الزاد، وضعف الكراع، فارجعوا حتى إذا سمنت الدواب وجددنا الزاد، رجعنا ".

لم تكف هذه الحملة لتأديب أتباع خلف، فما رجع حتى عادوا إلى ماتعوده من الاعتداء على الآمنين، وسلب أموالهم ونهب أرزاقهم. وجرد العامل الحازم حملة أخرى لتأديبهم ففروا من أمامه، وأراد هذه المرة أن يستأصل الداء، وأن ينتهى من هذه المشكلة التى طالت، ولكن أبا مرداس كان لا يزال عند رأيه الأول، كان لا يريد استعمال القوة، وكان يرجو أن يثوب أولئك العصاة إلى رشدهم، ويتوبوا إلى ربهم، فنصح للعباس بالرجوع، ولكن العباس هذه المرة كان مصمما على المضي، فلم يمتثل لنصيحة الشيخ ولم يستجب لدعوته، فرجع أبو مرداس إلى نفسه وقال : " ماأعظم جنون مهاصر – يعني نفسه – حين يترك ربه ويلجأ إلى رجل مثله، يطلب إليه امراً " ثم اتجه إل ربه داعياً أن ينزل عليهم غيثاً عميماً، فاستجاب الله دعاء الشيخ ونزل الغيث مدرارا، سالت به الأودية، وارتوت به الهضاب، فجاء الجند إلى القائد يستأذنونه في الرجوع ؛ لأن الموسم موسم زراعة وهم جند يقاتلون دون أن تكون لهم مرتبات، وليس لهم مطمع في غنيمة لأنهم يقاتلون الموحدين البغاة، واضطر القائد إلى تلبية رغباتهم، فقال له الشيخ ردهم الآن إن استطعت ! وهكذا انتهت الحركة الثانية وفق رغبة أبي مرداس، ولكن آمال أبي

مرداس لم تتحقق، فلم يثب أولئك القوم إلى رشدهم، ولم يتوبوا إلى ربهم، ولم يحاسبوا أنفسهم، بل ما كف عنهم حر القتال، حتى عادوا لما نهوا عنه.

لقد كان الشيخ يعتقد أن هذه المناورات التى يقوم بها الجيش القوي المظفر، كافية لإرهاب العدو، وإيناس الصديق، فينكمش المعتدون، وأما المسالمون فإنهم سوف ينضمون إلى الإمامة، وبذلك يكون قد استطاع أن ينشر الأمن في جميع الربوع، دون أن يريق الدماء.

ويظهر أن رأي القائد كان أنسب لهؤلاء الذين طبعوا على العناد، وألفوا الغارات، وتعكير الأمن، وسلب أموال الناس، ولذلك فقد جهز للمرة الثالثة حملة قوية لتأديبهم، وصمم على أن يقضي على الأيدي العابثة، ولما كان ببعض الطريق تفقد الجيش، فلم يجد أبا الحسن الأبدلاني وأبا مرداس، فحبس الجيش ورجع يلتمسهما مخافة أن يكون وقع حدث دون أن يعرف، غضب منه الشيخان، وهو حريص أن يكون عند رضائهما بل إن الأمة كلها كانت حريصة على رضائهما.

أما الشيخان فقد تعبا من المسير، وضعفا عنه لكبر السن فرأيا أن يستريحا قليلا بالطريق، وقصدا " أغرميمان " بتغرمين عند العجوز هذه العجوز العالمة الصالحة التقية، التى قصرت نفسها في مجلس الذكر كما تدل عليه كلمة " أغرميمان " التى تعنى قصر النفس في مجلس الذكر، وأصلها أغرم إيمان.

وفرحت العجوز أم الخطاب بزيارة الشيخين، فذبحت شاة

لضيافتهما، وكانت تناقشهما في مسائل العلم ومعاني العبادة وما لبثا حتى وصل العباس يلهث من التعب ويتساءل في حيرة وارتباك عما أرجعهما عنه،فبادر أبو مرداس يطمئن القائد قائلا : " إنك على الحق لم ننكر عليك شيئاً " وأوضحا له أنهما تعبا وأصبحا لا يطيقان السير العنيف، ومصاولة الأقران، فاطمأن قلبه وقال لهما دعا الحرب لمن يطيقها.

كانت العجوز تستمع إليالحديث الذي يدور بين الأبطال الثلاثة وكانت لم تعرف أنهما رجعا إليها من الجيش، فلما علمت بذلك، وعرفت أن العباس ذاهب إلى قتال العدو، عمدت إلى اللحم وكان قد نضج واستوى، فوضعته في خرج العباس، وقدمت إلى الشيخين المرق قائلة لهما وهى تشير إلى العباس وقد امتطى جواده وانطلق به : هذا الذي يستحق اللحم أما أنتما فيكفيكما الجلبان تعنى العدسن وما معه، فابتسم الشيخان في رضا واستحسنا منها هذا السلوك.

أما العباس فقد تعقب الجناة واستمر ينشر الأمن ويقيم العدل ويحافظ على قواعد الإسلام، حتى بلغ كَكَّلَة فأمن الناس وعم الرخاء، وانقطعت أسباب الفتنة.

لقد كان العباس مثل أبية، قوة وشجاعة وإيماناً، لا يرهب بطلا ولا يخشى معركة، ولا تغره دنيا، ولا يدخله الشيطان من باب، يتواضع للمؤمنين حتى تحسب به ضعفاً به ويقسو على العصاة والمجرمين حتى تخال به عنفاً، ولا يتمسك برأيه في عناد وإصرار، ولكنه يستمع النصيحة ويرجع إلى الشورى، ويعمل بما يقول به المخلصون.

أبو ذَرّ أَبَان بن وسيم

نشأ كما ينشأ الفقراء من أبناء العوام، كفاح متواصل في سبيل العيش، وعمل دائب في زراعة الأرض، حتى شب عن سن الدراسة، واستعصى عوده عن حمل المحفظة، وأصبح رجلا من أولئك الرجال الذين لم يتح لهم أن يغترفوا من مناهل العلم العذبة، فنشأ جافاً، وإن كان ذا ذكاء متوقد ونفس حساسة، وعزيمة دونها الفولاذ مضاء.. مرض يوماً فلزم حجرة مع أخيه عبدالله : العالم الفقيه فكان الناس يزورونهما، ينصرفون بأحاديثهم ووجوههم وقلوبهم ومؤاساتهم إلى أبي عبدالله، ولا يلتفتون إلى أبان إلا إذا نهضوا للخروج، فتنطلق منهم كلمة المجاملة : " كيف حالك ياأبان؟"،فيجيبهم ونفسه تكاد تنفجر : " إن عاش أبان جعل للدنيا جزاءها إن شاء الله ".. وعاش أبان، وسلم من هذه المرضة، وشفى من ذلك الداء، وخرج لا ليواصل كفاحه في غرس الأشجار،ورعي الأبقار، وجمع وسائل العيش ؛ ولكنه خرج ليستقبل عملا جديداً، يخجل أكثر الناس أن يقوم به، ويضربون لذلك المثل فيقولون : " بعد ما شاب دخل الكتاب "، خرج ليزيد إلى كفاحه في سبيل حياة الجسم، كفاحاً في سبيل حياة الروح ... كفاحاً أشد، يقتضى صبراً وسهراً، وقوة إرادة، وصدق عزيمة، وبدأ يتعلم ...

بعد أن ينتهى من كفاحه المادي، يذهب إلى علامة زمانه أبي خليل الدركلى، للدراسة، وكان أبو خليل، من أولئك الذين خلقوا بطبعهم للتعليم، وتبليغ رسالة الله، وتوجيه الناس إلى المثل العليا، فلم يكن يقتصر في تعليمه على وقت، أو يقف عند نظام، أو يراعي طبقة، إنه وهب نفسه كلها، ووقته كله للتعليم ؛ يلقي الدروس النظامية على الطبقات النظامية في مدرسته العامرة، في الأوقات المخصصة، ولكنه عند ما يخرج من المدرسة إلى السوق، إلى المسجد، إلى البيت، في الليل أو في النهار، كان لا يكف عن التدريس، ولا ينقطع عن التعليم، ولا ينتظر أن يكثر الطالبون، أو أن تستدير به الحلقة، ولذلك فقد كان نبعاً ثراراً عذباً، يستقى منه أبان في أي وقت أمكنته الفرصة وحضر إليه.

وواظب أبان على هذه الدراسة، وتفتح قلبه وعقله للعلم والفهم، يساعده على ذلك عزيمة صادقة وصبر على المتاعب والمصائب، راض نفسه عليها يوم كان يكافح من أجل الحياة، وإيمان بأن حياة الانسان بدون علم لا تستحق أن تحيا، أو تحسب من العمر، وبلغ في درجات العلم فوق ما أمَّل، وأجازه أستاذه أبو خليل الدركلي، إجازة لم يتحصل عليها أحد من طلابه الأذكياء النجباء، وما كانت تجاز إلا للقليل من الأعلام، الذين يدركون أسرار الشريعة، ويفهمون مقاصدها العميقة، ويفرقون بين الحالات المتشابهة المظاهر، ويعرفون بواعثها، ويتعمقون في دراسة نفسيات الناس، ومدى ارتباط أعمالهم بإيمانهم، فقال له : " افت للناس بالرخص، لكل زمان نذير، وأنت نذير زمانك ". إن الفتوى بالرخصة لا تصح لكل أحد، ولا لكل حالة، ولا تكون قاعدة عامة

تبني عليها الأحوال المتشابهة، ولا يفتى بها كل متعلم، إنها كالدواء الضروري، الذي لا يعطى إلا في حالات خاصة ؛ تراعى فيها جوانب معينة، لا يمكن أن يدركها إلا قلة من العلماء، الذين أوتوا فهما لأسرار الشريعة، وحكمة الفريضة، ومعرفة نفسيات الناس ؛ وكان من هؤلاء الصنف : هذا العلامة الذي درس بعقله، واعتمد على فكره، وبلغ أعلى مراتب علم الشريعة، بفهمه لا بحفظه، فأصبح أعظم مرجع للإسلام، وقدوة للعلماء الأعلام، ولا يخلو كتاب من كتب الإباضية عن آرائه وفتاواه وتحقيقاته، وكثيراً ما تكون تلك الآراء هى خاتمة النقاش، ومحز الخلاف.

لقد كان نافذ البصيرة، حاد الذكاء، عميق الفهم، قوى الحجة، واسع الاطلاع، ولكم وجهت إليه الأسئلة في معضلات المشاكل، فوجدت عنده الجواب السهل القريب، وكان بعض المتعلمين يؤلفون أسئلة فيما يظنونه مستحيلا أو قريباً من المستحيل، ويوجهونها إلى ذلك العلامة، فيجيبهم دون روية أو تفكير ...

قيل له يوماً : كيف المخرج لرجل حلف لإمرأته بالطلاق أن لا يزوج ابنتهما لمن يحبان ؛ ولا لمن يبغضان ؟ وظن السائل أنه وضع بين يدي الشيخ سؤالا معقداً يحتاج إلى تفكير على أقل تقدير، ولكن الشيخ خيب ظن السائل وأجابه على الفور : يزوجها لمن لا يعرفان، واقتنع السائل وسكت.

وقد كان الطلبة كثيراً مايضعون أمثال هذه الأسئلة التى يعتقدون استحالتها أو صعوبتها، ويأملون من وراء ذلك أن يقف

هــذا البحر حائراً مرتبكاً، ولكنه كان فــي كل مرة يخيب ظنهم، ويجد الجواب الشافي دون حيرة أو أرتباك ...

لهجت الألســن بعلمه، وفضلــه، وتقاه، وقــوة إرادته، واتباعه للحق، فهمه للأســرار، وشــدة ذكائــه، وكان الإمام فــي " تاهرت " يبحث عــن مثل هذا الرجل ليوليه أمور المســلمين. إن العلماء والصلحــاء والتقاة كثيرون في ذلك الحــين، ولكن العلم والصلاح وحدهــا لا يكفيان للإختيار؛ إن الذكاء وقــوة الإرادة والصلابة في دين الله، أمور ضرورية لمن يتولي شأن المسلمين.

كان الإمام يبحث عن هــذه العقول النيرة، والقلوب البصيرة، ليحملهــا أمانة الأمــة، ويضع بين يديها تلــك المهمة العظمى. فبحث إليه بعد وفاة العباس بالولاية على جبل " نفوســة ". وما والاه.

إن تولــي أمر المســلمين عنــد أولئك الناس لا يعنــي جاها ولا منصبــا ولا ثروة، ولكن يعنــي تحمل أعباء ثقال، يحاســب عليها الرجــل من ضميره، ومن الإمام، ومن الأمة، ومن الله ؛ ولما جاء أمر الإمــام إلى العالم الكبيــر بالولاية لم يرده ؛ ولكنه قبله في حزن وأســف، ثم أتجه إلــى الخالق الذي بيده المــوت والحياة، وتضرع إليه فــي حرارة : أن لا يطيــل مدة هذه الولايــة، وأن يجعلها لا تتجاوز ســبعة أيام، فإن تجاوزتها فلا تتجاوز سبعة أشهر. وأستجاب الله لدعوة عبده، فلم تتجاوز مدة ولايته ســبعة أشهر. " إن لله رجالا لو أقسمو عليه لا برهم ".

أبو منصور إلياس

مؤمــن عميــق الإيمــان، وبطل لا يهــاب أعباء البطولة، نشــأ في "تَنْدمَّيــرة" في هذه القرية التى كانت ولــم تزل مقراً للعلم والديــن، ومنبعاً للذكاء والخلق المتين، لم تتح له فرصة الدراســة في صغره، وكان في خلقه خشونة وعرامة. وفي بنيته أسر وقوة، وفي طبعه حدة وشدة. لم يهذبه من ذلك في زمن الصغر إرشاد المدرس، ولم تنل منه عصا المؤدب. فشــب صلبــا قويا، ولكنه في هذه الصلابة والعزة كان يجل العلم والعلماء.

كان ذات يوم في " تيجى " في هذه القرية الجميلة الوســنانة، التى تســتلقي في اســترخاء عند أقدام الجبل الشــامخ. تمتص الــزلال العذب مــن منابعه الصافية، وكان ينحــدر الماء إليها من القمم الشماء التى تناطح السحاب في كبرياء. وكانت " تيجى " في ذلك الحين مدينة آهلة بالعلم والعلماء، وكان سعد بن أبي يونس الذي أسندت إليه ولايتها بعد أبيه، يتولي شؤونها، ويرعى أمورهــا، ويقيم فيها كتاب الله، ويشــرف على المدرســة العامرة، التى أسســها أبوه فيهــا، والتى خرجت فيمن خرجــت أبا معيد الجناوني ؛ العالم الزاهد، الذي يقوم مقام أمة.

قلت : إن أبا منصور كان في تيجى لشــأن من الشؤون، فلقي أبا مرداس مهاصر، وكان أبو مرداس حافي القدمين، منهك القوى،

قد أدمى الشجر والحجر قدميه، وكان في سنة قحط وشدة، فرق لـه أبو منصور، ونزع نعليه فأعطاهما للشـيخ، فتقبل الشـيخ هـذه الهدية، ثم اتجـه بقلبه إلى ربـه وقال يخاطـب أبا منصور – وكان أبـو منصور فتى قويا من أهـل الجملة - : " نزع الله منك يافتى مالا يرضي، ورد فيك مايرضي". قال أبو منصور يتحدث عن نفسـه : " فأحسسـت حين دعا بما غشـيني " فوقع في نفسـه التعلق بالمراتب العالية من العلم والعمل.

وهكـذا تغير وجه التاريخ بالنسـبة إليه، واتجـه اتجاها جديدا، حتى بلـغ غاية يقصر عنهـا كثير من العاملين. واشـتهر علمه وخلقـه ودينه بين النـاس. حتى بلغ ذلك الإمـام أبا اليقظان في تاهـرت، فعينـه واليا علـى ليبيا، وسـار في عمله السـيرة التى يعرفها المسـلمون : قـوة في الحـق لا تبلغ الطغيـان، وعدل بين النـاس يجري على مـا أمر به كتاب الله وهـدي محمد صلى الله عليه وسـلم، وخلق كأخـلاق الصحابة، يدفعها الإيمـان للعمل، ويقـف بها الإيمان عن الانحراف عن سـبيل الله، يبلغ في شـدته على العصاة والمجرمين والمنحرفين، ما يملأ قلوبهم خشـية للحق، ويقف لكلمة حق يسمعها من أي شخص عادي، لا تغلبه نفسه عن الرجوع إلى الحق في أي موقف أو أي مكان. إنه كان صورة ثابتة للفاروق رضى الله عنه، ولو لم يتح له ما أتيح للفاروق : من إقامة دين الله، والمحافظة عليه ...

جاءته رسـالة من أحـد عماله يطلب فيهـا إقامة الحد على حاملهـا، وكان جماعـة من العلمـاء حاضرين ؛ فيهـم القاضي عمـروس ؛ وقـرأ الوالي الحريص علـى إقامة حدود الله الرسـالة،

وفهمها، وبدأ في إقامة الحد.

وفي هذه الأثنـاء وصل العالم الزاهد أبو الليث 28، فأفسـح له المشـائخ في المجلس، وطلبوا منه أن يشرف مجلسهم، ولكنه أجابهم – وهو يشير إلى الوالي – حتى أنظر ما يقع هناك، ووصل إلى الوالي وهو يباشر إقامة الحد، فسأله عن عمله هذا ؟ فأخبره الوالي أنه يقيم الحد برسـالة وردت إليه من أحد عماله، فقال له : " أمن أجل سواد في قرطاس، تضرب الناس، ياإلياس ؟. " وقرعت كلمة الحق سـمع الوالي العظيم، وتمكنت من قلبه، فأوقف يده الضاربة ؛ ووقف موقف التلميذ المذنب أمام المدرس الحازم، وسأله عـن رأيه فـي القضية، فقال الشـيخ العالم : تضـع الرجل في الحبـس، وتبعث بالأمين. فـإذا ثبت عليه الحكم أنفـذت فيه الحد، وإلا وجب أن تقاصصه من نفسـك ؛ وأطاع الوالي، وبعث بالأمين، فثبت عنده أن الرجل مظلوم، وأن الجاني المطلوب لم يحضر، وإنما سـلم الرسـالة إلى هذا الغافل، ونزل الوالي على حكم الشيخ، وقاصص الرجل من نفسه.

هذا مثل يوضع بين يديك أيها القاريء الكريم، يوضح لك قيمة العلم عندما يقوده الإيمان والحق والدين الصحيح. إن العلماء هم حجـة الله في الأرض، يسـتوي عندهم الحاكم والمحكـوم ؛ لا يقع بـين أيديهم شـأن من شـؤون الدولة والأمة حتـى يفهموه حق الفهـم، ثم يصـدرون فيه حكم الله ؛ ومـا دام هؤلاء العلماء في الأمـة، فإن الأمـة بخير ؛ فإذا انقلب العلماء إلـى أتباع للحاكم، يبررون أعماله، ويساندونها بالفتوى، ويوجبون طاعته على الناس، ويطالبـون الشـعب بالصبـر، ويتلقون مـا يقذفـه عليهم هذا

الحاكم من أرزاق وعطايا.

إذا انقلب العلماء إلى مهازيل، يسيرون وراء القافلة يَحْدُون ويصفقون، فإن الأمة سوف تنحدر إلى هوة سحيقة العمق، لا يعلم إلا الله قرارها.

لم يكن أبو منصور جبارا ولا طاغية، ولكنه أخطأ بعدم التثبت ؛ وكان بمجلسه جمع من العلماء جاز عليهم هذا الخطأ كما جاز على أبي منصور، فلما عرف الحق رجع إليه، وأقاد من نفسه، وهو موقف رائع، يدعو إلى الإعجاب والتقدير.

إنه موقف الحاكم المسلم، الذي لا يعتز بالأثم بالسلطان، ولا يعتصم بالقوة، ولا يتردد في قبول الحق، مهما كان هذا الحق، وكيفما كان هذا الحق، وعلى من كان، ولمن كان ...

عرف الناس ماعليه أبو منصور من الصلابة في دين الله، فلزموا الجادة. ولكن أبناً لخلف بن السمح، خطر له أن يجدد أمر أبيه، وأن يدعو لنفسه، وأن يعكر الأمن الذي ساد، والسلام الذي انتشر ؛ فطارده أبو منصور حتى ألقى عليه القبض في جربه، وحبسه أياما ثاب من بعدها، وصلح حاله، وأصبح يسمي بعد ذلك " الطيب بن الخبيث بن الطيب ".

حصل بين العباس بن أحمد بن طولون وبين أبيه نفور وسوء تفاهم، فانتهز العباس غياب أبيه عن مركز الدولة في القاهرة، وأخذ ما فى خزائن الدولة 29من الذهب، ويقدرها بعض المؤرخين بحمل ثمانمائة حمل من الدنانير الذهبية، وجهز جيشا واتجه إلى المغرب.

كان ينوي أن يحتل هذه البلاد الواسعة الغنية، التى تقع ما بين الإسكندرية والمحيط الأطلسي، ويكون فيها دولة مستقلة مركزها القيروان -عاصمة الأغالبة في ذلك الحين – وسار بجيشه الذي زحف على برقة زحف الجراد.

فلما وصل إلى طرابلس حاربه عامل الأغالبة فيها " ابن قهرب " ولكنه انهزم وتحصن في المدينة، ولما وصل إلى " لبده " خرج إليه عاملها وأهلها وأكرموه، ولكنه لم يرع حق هذا الإكرام، فأمر بنهبها فنهبت على حين غرة، وقتل رجالها وانتهكت حرماتها. قال الزاوي : " وقد امتدت يد جند ابن طولون إلى البوادي الذين يسكنون خارج المدينة، وكانوا من البربر الإباضية، ومن أتباع إلياس أبي منصور النفوسي : صاحب جبل نفوسة، ونالوا من حرماتهم وأموالهم فاستغاثوا به من جيش بن طولون

وقد كتب إليه ابن طولون حينما كان يحاصر طرابلس : " أن أقبل بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي، وأبحت حرماتك " فرد عليه إلياس : " أما أنك أقرب الكفار مني، وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعنى التخلف معه عن جهادك، وأنا على أثر رسالتى إليك " وجهز جيشا من اثنى عشر ألف مقاتل، والتقى بابن طولون في قصر حاتم سنة 267، فانهزم ابن طولون، وتشتت شمله، واستبيحت أمواله، وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد، ولم يأخذ البربر شيئا من الغنائم، لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين، ولا يستبيحون دماءهم مادامو محاربين لهم، ولايستبيحونها في حال السلم .

ووصل ابن الأغلب إلى طرابلس بعد أن تمت المعركة وانهزم ابن طولون، ورجع أبو منصور إلى مركز حكمه.

وصل ابن الأغلب كما تصل الغربان، يبحث عن الدنانير التى عف عنها أبو منصور، ويلتقطها من الناس، حتى أن الجندي كان يبيع دنانير ابن طولون سراً بأي ثمن، خوفا من وجودها عنده.

في هذه الحادثة التاريخية يلتقي ثلاثة قواد من قادة الأمة الإسلامية : هم العباس ابن احمد بن طولون، وابراهيم بن احمد بن الأغلب، وأبو منصور إلياس ...

وفي إمكانك أيها القارئ الكريم أن تقارن بين هؤلاء الرجال، وأن تعرف أيهم كان يتبع في جميع تصرفاته هدى الإسلام، وأيهم كان يتبع هواه، ويسير في سبيل الشيطان ؟

أيهم كان يمثل الإسلام حق تمثيل ؟ وأيهم كان لا يبالى بدين ؟ ولا يقف عند حدود الله ؟ ... هذا فتى يجد غرة من أبيه السلطان فيسرق خزائن الدولة، لأنه يتعجل الوصول إلى الحكم، ثم يكون جيشا ويتجه إلى المغرب، يقتل الأنفس البريئة، وينتهك الحرمات المصانة، ويجازى من أحسن إليه شر الجزاء، ويهدد مسالما لم يتعرض له فيقول : " أقدم بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي، وأبحت حرمك ".

ما مقدار إيمان هذا الرجل الذي يسرق خزانة الدولة، ثم يتوغل في بلاد المسلمين : يقتل ويسلب ويغنم، وينتهك الحرم، ولا يقف عند هذا الحد العملي، بل يتجاوزه إلى أن يسند لنفسه التشريع، فيقول لمؤمن عصم الإسلام ماله ودمه وحرمه : " وأبحت حرمك "

إن الذي بيده الإباحة والتحريم، إنما هو خالق الخلق، وليس لغيره أن ينزل ديناً على حسب هواه، يحلل ويحرم.

إن الرجل الذي يستحل ما حرم الله، ثم ينسب ذلك إلى نفسه في غرور ووقاحة وتبجح، لا يخشى أمر الله، ولا يستحي من مخالفة دينه وأمره، ليبعد عن الإسلام !

وضع إلى جانب هذا الموقف الظالم الخارج عن حدود الله، موقف خصمه، هذا الخصم الذي اعتدى عليه في مقره، وهدد بإباحة حرمه، وبأن تطأ الخيل بلاده ؛ وطولب أن يقدم السمع والطاعة لفتى مغرور، أقل ما يوصف به عقوق الوالدين.

لقد ثار ! ... وأي حر لا يثور ؟ ... ولاقى الطاغي الجبار في قصر حاتم ... وكانت المعركة.. وشاءت إرادة الله أن ينتصر الحق والشهامة والمروءة ! ... وأن ينهزم الطغيان المتكبر الجحود ! ... فماذا كان من المنتصر ؟.. ما هو موقف أبي منصور إلياس ؟.. هل ذبح الأسرى ؟. هل قطع الرؤوس ؟ هل انتهك الحرمات ؟ : حرمات المحاربين، أو حرمات المسالمين، هل أطلق أيدي الجند للغنيمة ؟ هل جمع الأموال ليستأجر بها المرتزقة ؟ أو ليبني بها القصور ؟ أو ليكدسها في بيت المال ؟ هل جمع الذهب الذي يتناثر في المعركة كما يتناثر الحصا ؟ إن وقر ثمانمائة حمل تنتشر هناك ؟ ! ... ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك !..

وعند ما ولَّى العدو منهزماً، وركب ابن طولون فرسه هارباً، أوقف أبو منصور رحا القتال، ثم أمر جيشه بالرجوع، هذا الجيش الذي يقاتل في سبيل الله، لا يأخذ من الدولة مرتباً، ولا من

ساحات القتال غنيمة. ورجع أبو منصور بجيشه المظفر، بريئاً من الإنتقام، بريئاً من الظلم، بريئاً من العدوان، نظيفاً من الدماء المسالمة، نظيفاً من الحرمات، نظيفاً من جميع الأموال ! ... أموال المسالمين، وأموال المعتدين، إنه لم يأخذ من هذا الذهب المتناثر في ميدان المعركة قطعة واحدة يحتفظ بها للذكرى، أو يجعلها في دور الآثار ...

وجاء الطامعون، بعد ما خلا الميدان من المنهزمين والمنتصرين، يتخاطفون ما عف عنه أولئك الأبطال المؤمنون، الذين يعرفون أين يقفون من حدود الله ...ووصل القائد الثالث، الذي كانت الحملة الطولونية موجهة إليه، وصل بعد أن انتهى كل شيء، فماذا فعل ابن الأغلب ؟.. إنه رجع إلى أشلاء المعركة، يجمع بقية الأسلاب، ويطارد الناس الذين غنموا من غير جهد، فينتزع منهم ما أخذوه، ويفتش الأفراد والجماعات، ليتحصل على هذا الذهب، الذي فرطت فيه خزائن القاهرة، حتى كان الرجل يبيع ما معه من دنانير ابن طولون بأي ثمن، ليتخلص منها، مخافة أن يجدها عنده أعوان الطاغية الثاني.

وسار التاريخ، لا يلتفت، وفنى الذهب الذي سرقه ابن طولون من خزائن أبيه ليبني به عرشاً، فنثره أبو منصور النفوسي في ميدان المعركة، وفنى ابن الأغلب، رغم هذه الدنانير التى كان يفتش عنها بدقة، ويجمعها بحرص، وفنى أبو منصور أيضاً، كما يفنى جميع الناس، ولكن هذ المثل الرائع، الذي ضربه للحكام، وهذه السيرة العطرة التى سار بها بين العدو والصديق، وهذا الخلق الكريم الذي اقتبسه من أخلاق النبوءة، وهذا الدين القويم،

الذي يعصمه من الخطأ والزلل، هذه الصفات وما إليها، بقيت خالدة مع الإنسان، توحى بالعبرة والذكرى لكل من يتولي أمر أمة.

إن الشهامة التى يتصف بها أبو منصور، والعبرة التى تركها للأجيال، والقدوة الحسنة التى خلقها لقواد الجيوش ؛ أغلى من ملء الدنيا ذهباً، وما عند الله خير وأبقي ! ...

الزاوي وأبو منصور

كتب الأستاذ الطاهر الزاوي عن مجيء العباس ابن طولون إلى طرابلس، وملاقاة أبي منصور النفوسي له، ورغم أن الأستاذ الزاوي في هذا الموضوع لا يجد مفراً من ذكر حقائق التاريخ، إلا ان قضية العنصرية لا تزال تشغل فكره، وتستحوذ على قلمه، يقول في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " صفحة 152 وهو يتحدث عن أبي منصور : " وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد – أي مع ابن طولون – ولم يأخذ البربر شيئاً من الغنائم لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين ". لست أدرى لم يحشر كلمة البربر في هذا الموضوع ؟ وهم قبائل متعددة في ذلك الحين، وفيهم صفرية يستحلون دماء وأموال الموحدين، وفيهم مرتزقة مع مرتزقة العرب 33 التى يتكون منها جيش الأغالبة على رأي الأستاذ الزاوي نفسه. ليس الموضوع موضوع عرب وبربر، ولكنه موضوع إيمان ودين ... إن أبا منصور وجيشه لم يتورع عن غنم أموال المسلمين لأنهم بربر، ولكنهم تورعوا عنها لأن الإسلام قد صان أموال المسلمين، فلم يبحها إلا بشروط معينة، وأبو منصور وأتباعه، يقفون عند حدود الإسلام : قاتلوا المعتدين، فلما انهزموا عفوا عن دمائهم وأموالهم ؛ لأن الإسلام يأمرهم برد العدوان، ويحرم عليهم أموال الموحدين، ويظهر أن

للأستاذ الزاوي رأيا غير رأي أبي منصور ورأي الإباضية ورأي الإسلام في قضية الأموال والغنائم، وفى الصورة الآتية تتضح لك معاني ربما لم تتضح من تعبيره في الجمل السابقة : -

كتب الأستاذ الزاوي عن أبي منصور في كتابه " أعلام ليبيا " ولعله مما يهم القارئ الكريم أن أنقل إليه هذه المقتطفات من هذا الكتاب القيم : قال الأستاذ الزاوي : " ومن أظرف ما وقع، أن الإباضية لم يأخذوا من هذه الغنائم شيئاً، لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين، ويستبيحون دماءهم ما داموا محاربين لهم، ولا يستبيحونها في حال السلم، مع أن إلياس كتب إلى ابن طولون رسالة قال فيها : أما أنك أقرب الكفار منى ... الخ، وكثيراً ما يريد الإباضية بالكفر، كفر النعمة. "

قرأت هذا الكلام، وأنا أعجب لهذا المسلم الذي لم يجد ما يعلق به على هذه الحادثة التاريخية الهامة إلا قوله : ومن أظرف ما وقع ... الخ، ماذا يقول الزاوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عندما انتصر في وقعة الجمل ولم يغنم الأموال ؟...

أيرى أن ذلك شيئاً ظريفاً ؟ وهل عادت أحكام الإسلام من التفاهة في نظر المؤرخين، بحيث يحكم عليها بالأحكام التى نطلقها على بيت من الشعر أو قطعة من الأدب ؟!.

ما وقع الظرافة في هذه القصة يا ترى ؟ أأن وقف المؤمن الورع حيث يقف به الإسلام، لا يظلم ولا يبغى ؟ إن هذا ليس فيه ظرافة ... إنه حق، وعدل، ودين ... وقف عنده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ووقف عنده أبو منصور إلياس، هذا الرجل الذي لم

تنتكس له راية، ولم ينهزم في موقعة ولم يلوث يديه بدم برئ، ولم يملأ جيبه بمال حرام، وأمثال هؤلاء الأبطال يجب أن يكونوا قدوة لولاة أمور المسلمين.

ويقول الزاوي : " الإباضية يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين " فهل يرى حضرة الأستاذ الكبير غير هذا الرأي ؟ أليس هذا هو حكم الإسلام ؟ ألم تعصم كلمة الشهادة دماء المسلمين وأموالهم إلا بحقها ؟ أم يرى أن الأباضية أخطأوا سبيل الإسلام، حيث لم يرتكبوا من الفواحش ما يرتكبه أولئك الذين اتخذوا الحروب ذريعة للغنيمة، ووسيلة لكسب المال.

ولم يجد الأستاذ الزاوي شيئاً يلمز به هذا البطل العظيم في جميع أعماله وسيرته، فأورد الكلمة التالية : " مع أن إلياس كتب إلى ابن طولون رسالة قال فيها : " أما أنك أقرب الكفار منى ... الخ. وكثيراً ما يريد الإباضية بالكفر كفر النعمة."

وما دام الأستاذ الكبير يعرف أن كلمة الكفر قصد بها كفر النعمة في استعمال أبي منصور، فما وجه إيرادها ؟. أم أن الأستاذ الزاوي يرى أن ابن طولون وهو يسرق خزانة الدولة، ويقتل الأبرياء، ويغتصب الأموال، وينتهك الحرمات، إنما يقوم بأعمال البر والإحسان ...

ثم لماذا لم يذكر أن هذه الرسالة كانت جواباً لرسالة من ابن طولون يقول فيها لأبي منصور " أقبل بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلادك بخيلي ورجلي، وأبحت حرمك " ؟ وأيهما أكبر في نظر الأستاذ الزاوي : إطلاق كلمة الكفر على رجل يرتكب من

الفواحش ما يندى له وبين الإنسانية، وينسب تشريعاً يخالف تشريع الله ؛ فيحلل ويحرم حسب الهوى ؟ أم هذا الموقف المتجرد من الدين والخلق، المحاد لأحكام الله، الزائغ عن طريق المؤمنين ؟ ...

إن الحق أحق أن يتبع، وهو لا يخفى على الأستاذ الزاوي، ولكن شيئاً في صدره يحيد به عن منهج الصواب، ويجعله يسلك طرقاً ملتوية، وهو يتصدى لكتابة التاريخ.. وليت الأستاذ الزاوي ضرب مثلا أعلى في النزاهة للشباب المسلم الذي نرجو أن يرتفع عن دنايا النفوس المريضة، ويرجع إلى الحق الذي جاء به الإسلام، ويستمسك بهدى العدول من أبناء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لا تؤثر عليه طائفية، ولا تميل به عنصرية، ولا يقدس إلا ما قدمته شريعة الله ...

أفلح بن العباس

بطل آخر من أبطال الكفاح، الكفاح بأوسع معانية، كفاح النفس والهوى ... وكفاح الظلم والباطل ... وكفاح الباطل من أي طريق جاء ... وثقت فيه الأمة ... ووثق فيه الإمام، فاسند إليه الإمامة على ليبيا ... وسار على النهج الذي سار عليه أسلافه : أبان، وأبو عبيدة، والسمح، وآباؤه : العباس وأيوب.

تواضعٌ للمؤمنين يكاد يكون ذلك ... وقوة على العصاة والمجرمين تصل إلى درجة الحدة ... وحمل للناس على السير في السبيل الواضحة، وقيام بأمور المسلمين ومهامهم دون تفريط في قليل أو كثير، وحب يشمل جميع : المسلمين.. وشورى تقف حيث يريدها خيار الأمة، وتتجه أنى يطلبون فلا يقطع أمراً دون رأيهم، ولا يصر على عمل وهم له كارهون، ولا يقف عن أمرهم فيه راغبون. ولعل موقفه هذا يتجلى في الموقعة التاريخية المشهورة، التى حطمت فيها سيوف نفوسه ... وقعة مانو.. جهَّز إبراهيم بن أحمد بن الأغلب جيشاً عظيما من تونس يريد به غزو مصر، ولما وصل إلى رقاده، أقام بها مدة يستكمل عدته، ثم أتجه إلى مصر يريد حرب ابن طولون ... وطريق هذا الجيش يمر بليبيا، وليبيا إباضية المذهب، تابعة للدولة الرستمية، ماعدا طرابلس العاصمة والبحر - حسب المعاهدة التى وقعت بين

عبدالوهاب الرستمي وعبدالله ابن الأغلب، وكان الوالي على ليبيا حينئذ هذا البطل الذي تتحدث عنه.. إنه أفلح بن العباس بن أيوب، وكانت شواطئ البحر والسهول الممتدة بين طرابلس والجبل مملوءة بالسكان، عامرة بالقرى والدساكر، وكان هؤلاء كلهم من الإباضية الذين يرجعون إلى أفلح ...

ولما سمعت نفوسة في الجبل بعزم ابن الأغلب على محاربة ابن طولون في أراضيهم، وأرادوا منعه من المرور، ووقع خلاف بين أهل الرأي والمشورة، فكانت الأكثرية تريد الوقوف في وجه هذا الغازي الظلوم، وكان بعض أهل الرأي يفضل عدم التعرض له ما لم يكن قصده محاربة الإباضية في ليبيا، وكان على رأس أصحاب هذا الرأي الوالي أفلح بن العباس، وعامل قنطرارة سعد بن أبي يونس. ولكن أهل الشورى والغالبية الكبرى من الأمة كانت ترى وجوب رده عن المرور في أراضيهم، وعدم السماح له بالاجتياز، وخضع الوالي الشجاع لرأي الأغلبية، واستجاب لمطلبهم، وجهز الجيش وقاده، حتى التقى بعسكر ابن الأغلب في قصر " مانو " على ساحل البحر، قرب قابس.

والتحم الجيشان، ووقعت معركة ندر أن يقع مثلها في التاريخ، وكثر القتل في جيش أفلح، وخاف أن يضعف إخوانه، فأمر حامل الرأية أن يركزها في الأرض حتى تثبت، ولا تحدث أحداً من أصحابه نفسه بالتخلى عنها، وحاول حامل الرأية أن يمتنع عن هذا العمل الخطير الذي كان حريا أن يقضي على الجميع، ولكن الوالي البطل أصر على أمره، وركزت الراية في الأرض، واستمرت الحرب، وكانت الرؤوس تتساقط من حولها حتى كاد

يفنى الجيش ولا يبقي منه أحد، وحينئذ تشجع أحد العقلاء الذين أيقنوا بالهزيمة، وعلموا أن الدفاع عن هذه الراية المثبتة يعني انتحاراً جماعيا، فضرب الراية وأسقطها وتفرقت البقية القليلة التى سلمت – وهم عدد قليل. وكان الوالي فيمن نجا، فرجع إلى مركز حكمه في الجبل، ورغم أن الوالي كان معارضاً لفكرة هذه الحرب، وأنه ما قادها إلا مكرها، رغم ذلك وجد بقية المشايخ قد استاءوا منه، وتشاءموا من ولايته، وحملوه مسئولية الهزيمة، واتفقوا على عزله، وولوا عليهم ابن عم له ... وآلمه هذا الموقف من إخوانه، وحز في نفسه، وفكر في أن يستمسك بالولاية، فاستشار العلامة أبا معروف حاكم شروس، فاقتنعه أبو معروف بضرورة الموافقة، والخضوع لرغبة المشائخ ؛ مادامت هذه الولاية ليست أمراً دنيويا، يطلب منها العلو في الأرض، وجمع الثروة والمال ؛ فرضى بحكمهم، ووافق على رأيهم..

ولكن ما لبث المشائخ إلا قليلا حتى أدركوا خطأهم، وعجز الوالي الجديد عن القيام بمهامهم، فعزلوه، ورجعوا إلى أفلح يطلبون منه أن يتولي أمرهم من جديد.. وفكر هذا البطل المؤمن أن يمتنع عن قبول هذا العرض، ويرفض الولاية التى نزعت عنه أمس دون سبب، ولكنه نظر إلى مصلحة الأمة، واستعرض حالة البلاد، فوجد أن المؤمنين الأقوياء في دينهم، وعلمهم، وخلقهم، قد أكلتهم الحرب في وقعة " مانو " ولم يبق إلا شيوخ يقعد بهم ضعف الشيخوخة عن تحمل هذه الأعباء الثقال، أو رجال ليس لهم من العلم والكفاءة ما يؤهلهم لشغل هذا المنصب الخطير، ولذلك فقد أنتصر على نفسه مرة ثانية، فرضى بما عرضه عليه

أهل وطنه، وقبل الولاية، وسار بهم سيرة السلف الصالحين ...

رحم الله تلك النفوس المؤمنة، التى تدور مع الحق حيث دار ...

لم أعترض الإباضية طريق إبن الأغلب

لكي تعرف السبب الذي حمل الإباضية في ليبيا أن تمنع ابن الأغلب من المرور في أراضيها بجيشه اللجب، يجب أن نذكر حقيقتين تاريخيتين :

الأولى تتعلق بتاريخ مضى، وتلك هى محاولة ابن طولون المرور في أرض ليبيا، فإن هذا الجيش الذي لا يخاف الله ولا يتقيه، عندما كان في ليبيا ارتكب من الفظائع ماتقشعر له أبدان المؤمنين، ولم تسلم منه القرى الوادعة، ولا الأحياء الضاربة بأنعامها وسط البراري، تنتجع الماء والمرعى، ولذلك فما سمع الناس بتكون جيش آخر بزمن المرور بأراضيهم،حتى كثر اللغط حول الموضوع، وبدأوا يفكرون في الفرار بأموالهم، وأعراضهم، ودينهم، عن هذه الجيوش المخربة، وعلى أثر هذه الحركة تكونت فكرة معارضة هذا الجيش ورده قبل أن يدخل البلاد ...

أما الحقيقة الثانية فهي تتعلق بإبراهيم بن أحمد بن الأغلب نفسه، وأرانى مضطرا أن أضع للقارىء الكريم صورة صغيرة عنه، ليدرك شيئاً من طبعه وخلقه، ويعرف بعضاً من دينه وسيرته وعمله، ويفهم السبب الذي حمل الإباضية في ليبيا ولا سيما

نفوسة على معارضته، ومحاولة منعه من الدخول إلى البلاد ... يقول الأستاذ الزاوي في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " صفحة 151 : " ولكن الناس طالبوا بإمارة إبراهيم بن الأغلب، لما عرفوه فيه من الحزم وحسن السيرة ".

وينقل الأستاذ الزاوي بعد ذلك وفي نفس الكتاب صوراً رائعة من هذه السيرة الحسنة التى يتصف بها إبراهيم بن الأغلب، فاستمع إليه إيها القارئ الكريم35.. يقول الزاوي :

" فسار إلى طرابلس – أي بعد وقعة " مانو " التى انتصر فيها على الإباضية – وكان بها ابن عمه أبو العباس محمد بن زيادة الله بن الأغلب فقتله. "

" وسار إبراهيم في جيشه من طرابلس إلى تاورغه، وهناك قتل خمسة عشر رجلا وأمر بطبح رؤوسهم، وأظهر أنه يريد أكلها هو ومن معه ".

" فكان يكثر القتل في أقاربه وأبنائه وإخواته وخدمه وأنصاره، فقد قتل إبنه بين يديه صبراً وقتل ثمانية إخوة له : ضربت أعناقهم بين يديه، "وأخفت عنه أمه بنات له، حتى رأت منه ذات يوم انشراحاً فأزادات أن تزيده مسرة فأخبرته عنهن، وقدمتهن إليه، وما خرجت بهن حتى أمر بقتلهن جميعاً، وكن ست عشرة بنتاً كالأقمار. "

هذه سيرة الرجل، وهذا دينه وخلقه وعمله، وعندما يكون أمثال هذا الوحش على رأس جيش من المرتزقة، يخضعون له كل الخضوع، ولا هم لهم من الحرب إلا الغنيمة والمتعة، ثم يمر

هـذا القطيع من الوحـش المتعطش على بلد مـن البلدان، فإن الآثـار التـى يتركها لن تكـون إلا الخراب والدمـار. وكان الإباضية في ليبيا وفي نفوسـة على الأخص يعرفون هذا الرجل، ويعرفون سـيرته وسـيرة جيشه الذي لم يهذبه الإسـلام، ولم يحترم في يوم من الأيام الحرم التى صانها الدين، وحفظها الخلق، وقدستها الإنسـانية. كانوا يخشون من هذا الجيش المرتزق الذي يقوده رجل مجنون أن يبسـط يده بالأذى والخراب في كل مكان يمر به، ولذلك أرادوا منعـه والوقوف في وجهه ... إنه موجة عارمة من الحيوانية التـى لا يتحكم فيها خلق ولا دين ولا ضمير ولا حياء ! ... فلم لا يحاول كل عاقل أن يبعد هذا الخطر عن وطنه وأمته ؟ ...

حاول الإباضية أن يقفوا في وجه هذا الفسـاد، ولكن الله أراد غيـر ذلك فقتل من قتل من أبطال الإباضية، وانتصر ابن الأغلب، انتصر هـذا الوحش الـذي وجد ناسـاً يأتمرون بأمـره، ويخضعون لسـلطانه، ومر على البلاد كما يمر الوباء، لا يسلم منه قريب ولا بعيـد، لأنه لا يرى حرمـة للنفس ولا للمـال ولا للعرض.. لا يقف عند حدود شـريعة أو دين.. وحسبك وحشية وشراً من رجل يقتل أبنـاءه صبـراً، ويقطـع رؤوس بناتـه دون أن يرتكبن إثمـا، ويطبخ رؤوسـا بشرية ليجهز منها عشاء له ولجند... إنه عمل لم يرتكبه المتوحشـون من بني آدم منذ أقدم العصور ... فهل أخطأ أولئك الذين دعوا إلى الوقوف في وجهه، وحبسه في مكانه، كما تحبس الأوبئة الفتاكة المعدية ؟ ...

لا ريب أنهم كانوا على حق ! ...

عَمْرُوسٌ بن فتح المسَاكني

قمة شـامخة من قمم العلم، يندر أن تجـد له مثيلا، ومؤمن مخلص في إيمانه، فهم حقيقة الإسـلام وأسرار تشريعه، وبطل مـن أبطال الكفـاح، يتضاءل أمامه الأقران، ويسـوق الجموع في الميـدان كما تسـاق القطعان،يملك إرادة بلغت مـن القوة مرتبة تذلل الصعاب، وتسهل العقاب، وتيسر الأسباب.

نشأ في " قطرس " : هذه القرية الجاثمة على ضفة وادي تاله العميق من أرض الرحيبات، وفيها درس وبلغ هذه المرتبة السامقة مـن العلـم، ولقـد كان – علـى هذا البعـد عن مركـز الاتصال والحركة – يسـتورد نفائس الكتب وغرائبها من كل مكان، وتصل إليه فيدرسـها دراسة المتعمق الفاهم، في أقل الأوقات ؛ وعندما يحـس بالتعـب أو السـآمة كانـت أخته تتولـي عنه القـراءة أو الكتابة أو النقاش.. وكم شـهد بناء ذلك المنزل العامر من نقاش واع لمشاكل العلم والاجتماع، يدور بين ابنة فتح وأخيها، بين هذه الصبية الحسـناء الذكية المثقفة التى تمثل المرأة المسـلمة حتى التمثيل، وبين أخيها الذي كان حجة من حجج العلم.

ويطـول النقـاش بـين الأخوين العالمـين حتى تقتنـع بصحة رأيـة فتسـلم أو يقتنـع بوجاهة نظرهـا فيرجع إليهـا، وعندئذ يسـتمران في الدراسة أو يسـتمر عمروس في التحرير والكتابة،

بمساعدة هذه الأخت الفاضلة العالمة، التى تهيئ لأخيها العالم المصادر، وتنسق له العمل، وتعد له ما يحتاج إليه ما أداة العلم : الكتاب،أو القلم، أو الورق، أو الدواة، وقد تتولي عنه إنجاز العمل إذا كان ذلك في إمكانها ...

ولقد بلغت هذه الصبية هذا المبلغ من العلم دون أن تمزق الحجاب، وأن تسعى بين الرجال عارية الصدر مكشوفة الراس ؛ إن محافظتها على المظهر المحتشم لم يمنعها أن تبلغ مالم تبلغه كثير من بنات اليوم، السافرات المتخلعات،الخبيرات بالحركات والغمزات ...

مر بقطرس – القرية التى أنجبت عمروس – العالم المحدث الفقيه " بشر بن غانم " يحمل معه مدونته، واستقبله عمروس استقبال الأخ المسلم لأخيه المسلم، وعندما أراد الرحيل ترك المدونة وديعة عند القاضي الأمين، حتى يعود ...

لم يخطر للقاضي أن يستأذن المؤلف في استنساخها، ولكنه فكر في نفسه ورأي أنه إذا لم يغتنم هذه الفرصة فإن هذه الثروة العلمية سوف تفلت من يديه، واستعد للعمل. أحضرت له أخته ما يحتاج إليه من ورق وقلم ومداد، وكانت تملى عليه وهو يكتب في فناء الدار، حتى إذا وصلتها الشمس تحولا إلى الظل، ولم يمض عليهما وقت طويل حتى أتما نسخها، ورجع صاحب الوديعة " بشر ابن غانم " يطلب وديعته فأرجعها إليه عمروس، ولكن بشراً كان يتوقع هذا العمل من عمروس، ولذلك فما تصفحها حتى ظهرت له آثار النقل، في قطرات المداد، واستعمال الصحائف،

فقال لعمروس وهو يبتسم : لقد سرقتها، وأجاب القاض يوهو جذلان : سمى سارق العلم.

أخذ العالم الكبير بشر بن غانم الخراسانى مدونته وارتحل إلى المغرب، وقصد عاصمة الإمامة في " تيهرت " ؛ وزين مكتبتها "المعصومة " الشهيرة بكتاب قيم جديد، هو مدونة أبي غانم، وكانت " المعصومة " من أعظم المكتبات الإسلامية، حوت أقيم الكتب وأندرها.

وعندما استولي الحجانى مولى عبيدالله الشيعي على تاهرت، أحرق المعصومة بما فيها من نوادر الكتب ونفائسها، واحترقت مدونة أبي غانم فيما احترق. ولو لا حرص عمروس وخدمته للعلم وجده في تحصيله، لخسر العالم الإسلامي كنزاً نفيساً من كنوز الشريعة الإسلامية، كما خسر من قبل ديوان جابر حين أحرقت مكتبة بغداد.

كان عمروس من أكبر أئمة العلم والدين، وله أقوال انفرد بها، وحسب من أجلها إماماً. ألف في علم الكلام وفي الفقه، ولايخلو موضوع في علوم الشريعة من آرائه وأقواله. وقد وضع تصميما لتأليف موسوعة علمية على طريقة حديثة في ذلك الحين، فيبين فيها الأحكام التى استخرجت من الإجماع، والأحكام التى استخرجت من القياس، ولكن المنية أعجلته عن إنجاز هذا العمل العظيم.

بعث إليه العلامة عبد الخالق الفزاني أن يؤلف له كتابا في الأصول، فبعث إليه كتابه المعروف بالعمروسى، ودرسه العالم

الكبير، وكان قليل النظراء، فاعترف في صراحة المؤمن وصدقه بأن صاحب هذا الكتاب أغزر مادة منه فقال : " النفوسي أقوى مني " 37وكانت للفزاني كتب قيمة في هذا الفن، ولكن الاعتراف بالحق، والابتعاد عن الغرور، كانت من الصفات التى يتحلى بها أولئك السلف الصالحون.

حج في جماعة من أهل الجبل، وحضر مجلساً للإمام الكبير محمد بن محبوب رحمه الله، وهو عمدة المذهب وإمامه حينئذ، فوجه إليه عمروس سؤالا، فقال الإمام : إذا كان أبو حفص في شئ من هذا البلد فهذا السؤال منه، ثم أجاب عن السؤال، وتعارف العالمان الكبيران، ووقف عمروس موقف الطالب النجيب من المدرس البارع، فكان يسأل وكان الإمام يجيب، حتى قال له الإمام : هذا من مكنون العلم، ولا يصح النقاش فيه بحضور العوام.

وكان إلى علمه وذكائه وسرعة بديهته لا يخشى أحداً في الحق. سأله رجل بمحضر أبي مهاصر : عمن أخذ من مال ابن طولون خرجا فتاب ولم يعلم له صاحباً. فأجاب القاضي العالم : تسأل عن صاحبه، فإن أعياك أمره فتصدق به. فغضب أبو مهاصر وقال : لا أقعد في مجلس يفتى فيه بمثل هذا.

قال عمروس : إن شئت أن تقعد فاقعد، فإن من شأن المسلمين أن لا يؤيسوا أحداً من رحمة الله ...

لقد كان أبو مهاصر شديداً، وهو يرى أنه يلزم صاحب الخرج أن يبعث عن صاحبه أو ورثته مهما كلفه الأمر، ولن يبرئه من

التباعة غير ذلك.

أما عمروس فقد كان أعمق فهما لأسرار الشريعة وروح الإسلام، والعمل بمقتضاه، وقد أصبح قول عمروس هو القول المعمول به في الأحوال المشابهة.

دعاه أبو منصور إلياس، وعرض عليه القضاء.

ومَنْ غير عمروس يمكن أن يلي القضاء لأبي منصور، إنهما نسخة مكررة من طبعة واحدة ؛ في الإيمان، والنزاهة، وقوة الإرادة، والشجاعة، وليس بينهما فرق في غير غزارة العلم. هذه الغزارة التى يتحلى بها عمروس : العالم الذكي الذي انقطع للدراسة منذ صغره. بينما رجع إليها أبو منصور بعد أن صلب عوده واشتد ساعده، ونضجت رجولته. فقال عمروس : " إن لم تأذن لي في قتل مانع الحق، والطاعن في الدين، والدال على عورات المسلمين فخذ عني قمطرك وخاتمك " واستجاب الوالى لشروط العالم، وتولي عمروس القضاء، وسار فيه سيرة المؤمنين الأمناء، الذين يحافظون على حقوق الناس، ويخشون الله في عباده ويتقونه، وكان شديداً على الظالم، قوياً عليه حتى يأخذ الحق منه.

اختصم إليه رجلان في مجلس الحكم بمحضر أبي منصور، وجمع كبير من المشائخ، فأدلى المدعي بالحجة، فاستردده المدعي عليه الجواب فسكت، وأعاد فسكت، ثم أعاد، فبقي المدعى ساكتاً ولم يقل شيئاً، فاستبان للقاضي لدد الرجل في الخصومة، فقام إليه فركله برجله، فقال الجلساء للقاضي : عجلت على الرجل.

فالتفت القاضي الذكي إليهم، وجمع أصابع يده وقال لهم

: كم هذه ؟ فأجابوه : تلك خمسة !.. وتبسم القاضي وقال لهم : لقد عجلتم، لماذا لم تبدأوا العدا من الواحد ؟ ... إن الحق إذا استبان، واتضحت براهينه لا يحتاج إلى الاطالة وتضييع الوقت وتعطيل الحقوق.

جاء قوم إلى أبي منصور يذكرون له : أن قطاع طرق غالبوهم على عير لهم ولما ذهب الوالي إلى محل العير، وجد كل فريق من القوم يدعى أن العير له، وأن الفرقة الثانية هم قاطعوا الطريق، فحار وبعث إلى القاضي.

جاء عمروس، فأبعد الطائفتين عن العير، ثم فتش أمتعتهما حتى عرف أسرارها ودخائلها، وعندئذ انفرد بكل من الفرقتين يسألهم عما في متاعهم،حتى استبان الفرقة التى تعرف كل شئ في العير، والفرقة التى لا تعرف إلا الظاهر فقط، وجاء بهم إلى الوالي وقال له – وهو يشير إلى أصحاب العير : هؤلاء أصحاب الرفقة، ثم أشار إلى الغاصبين وقال لأبي منصور : وهؤلاء أضيافك، يكنى بذلك عما يجب من حبسهم، والتنكيل بهم.

قلت في صدر هذا الحديث : إن عمروسا كان شجاعاً بطلا في ميدان الحرب كما كان عادلاً في ميدان القضاء، وذكياً في حل المشاكل، وقوياً في إثبات الحق ...

حضر وقعة " مانو " بين نفوسة والأغالبة : تلك الوقعة الكبرى بين الإباضية في ليبيا، والأغالبة الزاحفين من القيروان. وكان لعمروس فرس في مثل قوته وإقدامه، فكان يحلق على العدو كما يحلق العقاب، وعندما يلحظ ضغطاً على جانب من

جوانب جيشه، يطير إليه، فيفرج عنه الكروب، ويشتت الجموع، وحار العدو في هذا البطل الذي ينزل بهم الضربات القاتلات في جميع جهات الميدان، فقال قائلهم : إنكم لن تحرزوا نصراً إلا إذا هوى هذا الشهاب، فاعمدوا إلى الحيلة – والحرب خدعة – فثبَّتوا حبالا في مكان، ما ووجهوا ثقلهم إلى تلك الناحية، ورأي البطل الكبير ما يقع في ذلك الجانب لأبطال جيشه المغاوير، فاتجه إليهم ليخفف عنه الضغط، ولكن الحبال اختلفت بين أرجل الجواد، فتعثر وسقط الفرس والفارس، وتسارعت عشرات الأيدي والسيوف إليه فأخذ أسيراً، وجئ به إلى أمير القوم : إلى إبراهيم بن الأغلب، إلى الرجل المسعور، الذي لم يرتكب فظائعه قائد حرب في تاريخ البشرية الطويل – فيما أعلم – وأراد القائد المجنون أن يشمت بالبطل المؤمن، فقال له : سلنى العفو فأعف عنك، فأجاب البطل : إن الأعمار بيد الله، وتلك كلمة لن تسمعها منى أبداً !.. فقال ابراهيم : إذن فارجع عما أنت عليه لنتركك، فقال : تلك كلمة لا أقولها حتى ألحق بالله ! ...

وكانوا يوجهون إليه هذه الطلبات وهم يوالون تعذيبه، أملا منهم أن يجدوا منه ضعفاً ولو في آخر اللحظات ... فكانوا يقرضون يديه بمقاريض من الحديد، شيئاً فشيئاً، ويقدمون إليه عروضهم. وكان ثابتاً في إيمانه، ثابتاً في عقيدته، ثابتاً في مبدئه، ثابتاً في شجاعته وبطولته، حتى بلغوا بقطعهم ليديه إلى المرفقين، ففاضت روحه، رحمه الله !!! وسجل التاريخ على ابراهيم المجنون صفحة أخرى سوداء، مع الصفحات السوداء الكثيرة، التى تركها في حياته.

حالة سياسية

كان أغلب المملكة الليبية تابعاً للدولة الرستمية في تاهرت ما عدا المدينة، حسب معاهدة عبد الوهاب وعبدالله بن إبراهيم بن الأغلب، وبعد وقعة مانو بقليل، تغلب أبو عبدالله الشيعي على تاهرت وخربها، وأحرق مكتبتها، فانقرضت الدولة الرستمية، وانقطعت الصلة السياسية بين ليبيا والجزائر، فأصبح مركز الإباضية في ليبيا جبل نفوسة، وبسقوط تاهرت صار هذا الجبل وما يتبعه مستقلا عن جميع الدول الأخرى ؛ إنه لم يخضع لإبن طولون، ولم يخضع للأغالبة، كما لم يخضع قط للدولة الفاطمية أو لغيرها من الدول التى تعاقبت على الحكم في المغرب الإسلامي إلى الاحتلال التركي.

ولكنه مع هذا الاستقلال لم يعلن ميلاد دولة جديدة، ولم يبايع إماماً وإنما كان يختار من رجاله الأكفاء حاكما يتولي شؤون الأمة ؛ فيحل المشاكل، ويوصل الحقوق، ويدافع العدو، ويوجه الأمة بإستشارة العلماء، وبالجملة يقوم بجميع ما يقوم به الإمام دون أن يتسمى بذلك.

وفي الصفحات المقبلة سوف أحدثك أيها القارئ الكريم عن عدد من هؤلاء الحكام الذين تولوا أمر الأمة في الجبل، فساروا بها في الطريق القويم؛ الذي سار عليه السلف الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وأنا حين حدثتك عمن ولى الحكم في ليبيا ابتداء من عدوان العباسيين على الإباضية دون حدث، وقتلهم للعلامة عبدالله بن مسعود التجيبي إلى انقراض الدولة الرستمية، أو حين أحدثك عمن ولى الحكم في جبل نفوسة إلى الاحتلال التركي، لا أتبع سلسلة التاريخ، ولا أتقصى الأشخاص، ولم يكن عرضي شاملا لجميع أولئك المؤمنين الذين ألقيت على كواهلهم أعباء الأمانة العظيمة، أمانة القيام بأمور المسلمين، ولكنني أحدثك عن بعضهم كأمثلة لما سار عليه الجميع.

وللقارئ الكريم أن يرجع إلى التاريخ المبسط المنصف، وسوف يجد أمثال ما أعرضه عليه من الصفحات المشرقات في أولئك الذين تولوا أمر الحكم، سواء كان ذلك في مناطق فزان المختلفة، أو في سرت، أو في زواغة، أو في قنطرار " تيجى " أو جبل نفوسة، إنه لن يجد في حكم هؤلاء وفي سيرتهم وفى أخلاقهم وفي دينهم إلا ما يرضي الله، ويرضي رسوله، ويرضي صالحي المؤمنين، ويشرف الإنسانية المعتزة بالحق والعدل، اللهم إلا إذا لم يفرق بين الإباضية والنكار، أو بين الإباضية والصفرية، أو بين الإباضية والشيعة، أو بين الإباضية وغيرهم من الفرق، فينسب إليهم، ما ارتكبه أولئك من الفظائع، أو ينسب إليهم مايرتكبه أعداء الأمة من أعوان السلاطين الظلمة، الذين لم يحترموا حكماً من أحكام الله.

أبو محمد
عبدالله بن الخَيْر

نشأ في قرية صغيرة من قرى الرحيبات تسمى " تيوِ نُزيرِف " والحرف (تي) في اللغة البربرية معناه : آل، أو أهل، وقد يستعملون [آت] بدلا من (تي).

تقع " وِنُزِرُفْ " هذه على قمة جبل شامخ، وتطل على واد سحيق العمق، يفصل بينها وبين " تميجار " (أولاد بوجديد) اليوم، وهي مركز الرحيبات في هذا العصر، وتبعد عنها نحو أربعة أميال.

في هذه القرية الصغيرة الجميلة، وعلى ضفة هذا الوادي العميق الأخضر، وفوق تلك القمة الشاهقة، نشأ أبو محمد عبدالله بن الخير، واستقبل أول ما استقبل من حياة العمل : مدرسة القرية ؛ فحفظ كتاب الله، وتأدب بآداب المسلمين، ودرس مبادئ الدين الحنيف على مشائخ القرية الفضلاء، فلما وجد أنهم لا يُشبعون نهمه، انتقل إلى مدرسة نذير زمانه العلامة أبان بن وسيم، ومن تلك المدرسة العامرة تخرج، فكان موسوعة علمية متحركة حتى ضرب به المثل فقيل : من ضيع كتاباً كمن ضيع خمسة عشر عالماً مثل عبدالله ابن الخير ...

وهذا المثل كاف في الدلالة على ماللرجل من شهرة في العلم.

رجع من بقي من الإباضية بعد وقعة مانو، وقد قتل فيها أكثر العلماء، وبعد زمن يسير من هذه الوقعة تغلب الشيعة على الدولة الرستمية في الجزائر، وخربوا تاهرت، وأحرقوا المعصومة، وبذلك أصبح جبل نفوسة وما يتبعه شرقاً وغرباً مستقلا عن الدولة المجاورة، غير مرتبط بواحدة منها، كما أن الإباضية في ليبيا لم يشاءوا أن يبايعوا أحداً بالإمامة، أو يدعوا إلى إقامة دولة، ولكنهم كانوا يكتفون بحكم خاص بهم.

يجتمع أهل الرأي والمشورة، فيختارون أكفأهم ؛ يسندون إليه أمورهم، ويضعون بين يديه شؤونهم، فيتولي القضاء بين متنازعيهم، والفصل في مشاكلهم، ومدافعة العدو بهم، وكل ذلك لا يتم إلا باستشارتهم، فإن سار على النهج وأعجبهم منه السلوك ساعدوه، وإلا عزلوه واختاروا لمكانه غيره، وفي أكثر الأحيان يتم هذا الاختيار بين مستشاري جبل نفوسه كلهم، وتكون صلاحيات الحاكم الذي يختارونه جارية على جميع الإباضية في الجبل وتوابعه، ولكن قد يقتصر حكم أحدهم على ناحية من نواحي الجبل، بينما يتولي غيره رعاية شؤون الأمة من الناحية الباقية ؛ وحينئذ تكون العلاقة بينهم علاقة تعاون ومشاركة في السراء والضراء، وليس توزيع الحكم بينهم إلا تقسيما للعمل، كي يتيسر القيام به على أهون سبيل، اما الأمة فهي لا تزال أمة واحدة، مرتبطة المصالح، لا تفرقة ولاخلاف، وعندما ينقضي هذا الوضع، تعود الأمة إلى ماكنت

عليه من وحدة السياسة والهدف والحكم.

لست أعني بذكر الحالة السابقة، أن نزاعا على الحكم، أو اختلافا في الرأي، أو تفرقة بين أبناء الأمة قد جرى في زمن من الأزمنة، التى تقع بين سقوط الدولة الرستمية ودخول تركيا إلى ليبيا، إن شيئاً من ذلك لم يكن في حفظي، ولا في المصادر التى بين يدي من كتب التاريخ، ولا استثنى من ذلك إلا الخلافات الفردية العادية، التى تقع عند كل أسرة.

ذهب أبو محمد عبدالله بن الخير فيمن ذهب إلى مانو، وكان من الأفراد القلائل الذين قدرت لهم الحياة بعد هذه الوقعة، فرجع سالما إلى قريته الصغيرة، وهو يتحسر ألما على الخسارة التى منى بها الجبل، وعندما توفى أفلح بن عباس هرع بقية المشائخ إليه، يعرضون عليه طلبهم، ولم يشفع له كبر سنه، فإن الحاجة إليه شديدة، إذ لم يبق من الأعلام الكبار بعد تلك الوقعة غيره، وغير أبي القاسم البغطوري، وكان أكبر منه سنا، وأوهن عظما، فاسندوا إليه الحكم عليهم، والقضاء بينهم، فسار بهم سيرة أولئك الأعلام الذين عرفت تقواهم لربهم، ولزومهم لهدي محمد صلى الله عليه وسلم، وتمسكهم بدين الله القويم، ورأيت نماذج من حكمهم : مساواة في الحق، وعدالة في الحكم، وسهر على مصلحة الأمة، ينبعث كل ذلك عن فهم عميق لأسرار الشريعة، وإيمان خالص بدين الله.. ومحبة صافية للمؤمنين ...

كان الإباضية في جبل نفوسة من أحرص الناس على اتباع السنة، والعمل بها، فكانوا لا يولون أمر الصلاة بهم إلا من

تجتمع فيه شروط الصلاح الكاملة، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، وكان أبو عبدالله ممن اجتمعت فيه هذه الشروط ؛ فهو أعلم القوم، وأحفظهم لكتاب الله، وأشدهم استمساكا بدين الله، وأكبرهم سنا ؛ ولذلك فقد كان يتولي أمر الصلاة بالناس، وغلب عليه الكبر، وأثقل طول الزمان سمعه، فكان يجهر بصوته في القراءة السرية حتى يسمعه من خلفه فقال له يحيى بن يونس السدراتي يوما : ماتسعنا الصلاة خلفك وأنت تجهر بالقراءة حتى نسمعك. فقال الإمام العالم : لم أكلف سماعك يأبنيونس ؟.. وكان هذا الجواب كافيا أن يعرف ابن يونس وغيره أن تكليف الله لعباده إنما يتعلق بما عندهم من قوى، لا بما عند غيرهم، إنه عندما يقرأ في صلاة السر لا يراعي إلا أذنيه، فإذا كان صوته عاليا بحيث سمعه من خلفه – لأن في أذنيه ثقلا – فلا يعني أنه قرأ جهراً في موضع السر، لأنه مكلف أن يسمع أذنيه في قراءة السر.

جلس للتدريس والتقوى بعد وقعة مانو، وبذل من الجهد في نشر العلم ما يعجز عنه من كانوا في عنفوان الشباب، ولم يحل دون قيامه برسالة التعليم المقدسة لا كبر السن، ولا ضعف البدن، ولا الإنشغال بمهام الحكم، ولقد استطاع بما بذل من جهد أن يعيد في مدة ليست بطويلة ما خسرته الأمة في معركة مانو الطاحنة، ولم يساند في هذا العمل إلا أبو القاسم البغطوري، الذي بذل من الجهد العلمي أكبر مما بذل أبو محمد عبدالله، لأن أبا القاسم لم يشغل بالحكم، وكأن حكمة الله أرادت أن يكون هذان الرجلان هما دعامة النهضة، فأتاحت لهما من العمر الطويل ما لم يتح لغيرهما، فقد عاش أبو

محمد مائة وعشـرين سـنة، أمضى أولها فـي الكفاح من أجل التعلم، والاغتراف من مناهل الثقافة الواسـعة. وأمضى آخرها فـي كفاح الجهل والظلم والباطل. حتى قبضه الله إليه. فرحمه الله رحمة واسعة.

أبو يحيى
زكريا الأَرْجاني

" أرجان " اليوم، أطلال قرية قريبة من " مَزُّو " تقع إلى الشرق منها على نحو ميل، وهى فوق ربوة عالية تشـرف على مايجاورها مـن الأرض، وعلى قمة تلك الربوة يجثم اليوم في وقار وخشـوع مسـجد فسـيح، ينسـب إلى أبي زكريا، الأرجاني ولد أبي يحيى. ولا يـزال هذا المسـجد إلى اليوم مقصد المسـلمين عند صلوات الاستسقاء والاستغاثة.

وفـي هذه القرية التى تقتعد قمة ربوة عالية كالحصن المنيع، يحيـط بها آلاف من شـجر الزيتـون كما يحيط الإطـار الجميل بالصورة الرائعة، في هذه القرية المتفتحة للحسن نشأ أبو يحيى زكريا الأرجاني، وفيها درج. وبين رياضها الغناء وقممها الشامخة الشـماء. وضفة واديها العميق سرح. وفي شـلال ماصِر وبحيرة الزرقاء عبث وسـبح. فـي هذه المناظر الجميلة السـاحرة تكونت المواهب الأولى للطفل، ثم انطلق إلى معاهد العلم ينهل منها بذهن متفتح، ويغتـرف من المنابع الغزيرة التى كانت متوفرة في ذلك الحين، فبلغ في المعرفة أسـمى الدرجات، وتحلى بما يتحلى به أولئك المؤمنون من الخلق الرفيع، وسـار سيرتهم العطرة، التى لا

توجد إلا عند الصفوة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وعكف بعد ذلك عليدراسة كتاب الله وسنة رسوله، وتفهم أسرار الشريعة. حتى كان في ذلك مرجعاً، وعرف فيه المسلمون هذه الصفات النادرة، من العلم، والعمل، والخلق، فأولوه ثقتهم، وولوه أمرهم، وبايعوه إمام دفاع،على أن يتولي شؤونهم حتى في حالة السلم ؛ فيفصل مشاكلهم، ويحكم بين متنازعيهم، ويأخذ الحقوق من أغنيائهم ليضعها في فقرائهم، إلى آخر ما هنالك من شؤون أمة يوجه سياستها الداخلية مؤمن آمين ...

وقد قبل ما عرضوه عليه، وتحمل هذه الأعباء الثقال بما عرف فيه وفي أسلافه، من أمانة ودين وحرص على مصلحة الأمة ...

عندما تشاور المسلمون في أمر الحكم، وعرضوه عليه، واتفقوا على إسناده إليه، لم يتهرب من المسؤولية، وقبلها مستعينا بالله على القيام بواجباته، كانت أمه وأخته وهما من العالمات الصالحات خائفتين عليه من هذا العبء الثقيل، وعندما كانت النساء مقبلات عليهما للتهنئة بهذا المنصب الرفيع، وبهذه الثقة، وهذا الاختيار، كانت الأم والأخت تنتحبان، وتذرفان الدموع، وتجيبان المهنئات : أنهم قدموه إلى النار: أنهم وضعوا على كاهله أعباء ثقالا ينوء بها : أنهم اختاروه ليفصل مشاكلهم ويفرز بين حقوقهم، فيبوء الناس بالمشاكل المفصولة، والحقوق المتاحة، ويؤوب بالحساب العسير، والغرم الكبير.

وانتصب الحاكم المدافع للقيام بهذه المهمة الثقيلة رغم معارضة أمه الرءوم، وأخته الحنون، ولم يتردد في التضحية

بنفسه عندما احتاجته أمته، فكان مثلا للمؤمن الذي يرعى الأمانة ويتبع الحق، ويفصل المشاكل، ويستميت في الدفاع، وهو في كل ذلك معرض عن متاع الحياة وزخرف الدنيا.

ولد له ولد، فجاءه الناس للتهنيئة، وقدم فيمن قدم جماعة من اليهود، جمعوا له أربعين ديناراً للمولود الجديد، فقال لهم : لو كنت أقدر على صيانتكم لأخذتها منكم جزية، ولكننى لا أقدر على صيانتكم، فخذوا أموالكم 42، وعبثا حاولوا أن يقدموها إليه هدية، إنه لا يقبل الهدايا وهو في منصب الحاكم أو الأمير، ولعله كان يذكر في ذلك الحين حديث رسول صلى الله عليه وسلم : (أما بعد : فإني استعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله، فيناجي أحدكم فيقول : هذا لكم، وهذه هدية أهديت إلي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر). ثم أطعم هؤلاء اليهود عنباً، وانصرفوا وهم يعجبون. كانوا يتحدثون وهم يقولون : عجباً : "ما رأينا مثل هذه البلاد، لايطمع سلطانها في أموال الناس ". وحق لهم أن يعجبوا. فهم يعرفون ما يرتكبه أصحاب السلطان من الجرائم للحصول على المال من أي طريق، فكيف يمتنع هذا عن قبول هدية طابت بها النفس، واستراح لها الضمير ...

كان بين بني زمور 43 وطرميسه سوء تفاهم وعناد، يؤدي في كثير من الأحيان إلى المشاغبة والنزاع عندما يتلاقون في أسواق جادو – ومركز الحكم، ومدينة جبل نفوسة في ذلك الحين – فخص

كل واحد من الفريقين بسوق واحدة في الأسبوع، لايجوز للفريق الآخر حضورها، حتى لا يقع هذا الشغب الذي طال مداه، وكان ذلك كافياً ليسود الهدوء بينهم.

بين جادو مركز الحكم وأرجان بلد أبي يحيى مسافة تبلغ ميلين أو تزيد، وكان أبو يحيى يقدم كل صباح إلى مجلس الحكم، وكان أول عمل يقوم به : أن يتجه بهذا الدعاء إلى ربه في إيمان وإخلاص : " اللهم اعط الحق الذي لذي الحق، ياذا الحق، ولا حجة لمحتج إذا احتج بلا حق ".

وبعد هذا الدعاء الحار يستقبل الناس بوجهه، ويستعرض مشاكلهم حتى يفرغ منها، وقد أنهكه التعب، تعب البدن وتعب الفكر، فيرجع إلى قريته الجميلة على قمة الربوة، وقد يستريح في الطريق عدداً من المرات قبل أن يبلغ إليها، لما ناله في مجلسه ذلك من النصب والعناء ...

قلت في صدر هذا الحديث : أن الأمة بايعت أبا يحيى إمام دفاع، فقام بمهمته هذه خير قيام، وكم حاول أبو عبيدالله الشيعي أن يحتل الجبل، فيقف له هذا البطل بالمرصاد، ويرده محطم الآمال، خائب المسعى ...

أغارت جيوش أبي عبيد الله الشيعي بقوة عظيمة على الجزيرة – وهي قرية حصينة على قمة جبل شامخ في جهة الحرابة – فتصدى له الإمام أبو يحيى، والحق به شر هزيمة. وسولت للشيعي نفسه أن يعيد الإغارة على قرية بعيدة من مركز الحكم، لعله يستطيع الحصول على شئ قبل أن يتمكن حاكم

الجبل برد العدوان،فهجم على " تِيرَكْتْ " وهي قرية أخرى تقع في الحوامد، بين " لالوت وكباو " فتصدى له إمام الدفاع القوي، وألحق به هزيمة أخرى شَراً من الأولى، وهكذا استطاع أن يحمي حوزته، كما يحمي الأسد عرينه، رغم كثرة المعتدين ومحاولات المستغلين؛ الذين غرتهم الدنيا، وسولت لهم أنفسهم، لقد كان رحمه الله صورة رائعة للمؤمن القوي، الحريص على إيمانه، الوثيق الصلة بربه، المحب لأمته.

استشهد في " تيركت " بعد أن هزم الشيعة وطردهم شر طردة – بطعنة غادرة، امتنع رحمه الله أن يسمي صاحبها، وفوض أمره إلى الله..

واجتمع رأي المسلمين بعده على تولية أبي عبدالله بن أبي عمرو، حفيد أبي منصور؛ فقام بالأمر مدة يسيرة، لكن أهل الشورى اتفقوا على عزله، وولوا مكانه أبا زكريا بن أبي يحيى الأرجاني،لإعتقادهم أنه أكفأ من أبي عبدالله، وأقدر على مجابهة الأحداث، ولم تطل به المدة، فقد هجمت جيوش العباسيين على الجبل، فتصدى لهم أبو زكرياء. ووقعت مقتلة كبرى بين الفريقين، ورجع " المسودة " جيوش بني العباس دون أن ينالوا من الجبل منالا، وعندما كان أبو زكرياء راجعاً، أصابته طعنة غادرة، كالتى أصابت أباه، واجتمع إليه المشائخ يسألونه عن رأيه فيمن يتولي أمورهم، فأجابهم وهو يعالج سكرات الموت، ويستعد للقاء ربه : أرى لكم زيد بن أفصيت الدرفي.

وهكذا لم يألهم نصحاً حتى في آخر لحظات الحياة، إنه موقف

شـــبه بموقف الفاروق رضى الله عنه ... ومواقف المؤمنين تتشابه في الإخلاص والنصيحة للمسلمين ...

إننـــي اختصـــرت الحديث عن هذيـــن البطلين، ولـــم يكونا أقل علما ودينا وجدارة وخلقا من أولئك الذين تحدثت عنهم بشئ من الإســـهاب والتفصيل، لأن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ يتقصى الأخبـــار والأحداث، وإنما هـــو مجموع صور لحياة أمـــة متمثلة في أعمـــال يقوم بها أفـــراد أو جماعات، وكثيرا مـــا اكتفى بصورة ما عـــن مجموع من الصور القريبة منها، أو المشـــابهة لها، ولو أردت الاســـتقصاء لمـــا كفاني الزمـــان والجهد الذي قدرتـــه لإخراج هذا العمـــل الضئيل، وهـــذه الصـــورة الباهتة، التـــى فارقتها حياتها وجمالها عندما تناولتها بريشتي الهزيلة، وأسلوبي الضعيف.